

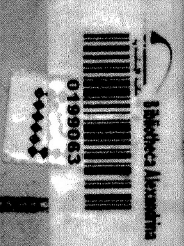
تأليف

عبد المتعال الصعيدي

المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي



اهداءات ٢٠٠١
الدكتور/ القطب محمد طبلية
القاهرة



تأليف

عبد المتعال الصعيدي

المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر

الطبعـــة الأولى

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعـــة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد أعدل المشرعين ، وأكمل المجددين ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا سبيله ، واهتدوا بهديه ، فلم يجمدوا فى دينهم على لفظ من الألفاظ ، ولم يهملوا جانب الحكمة من التشريع ، فسايروا الزمن فى الإصلاح ، وجعلوا الدين يسرا لا عسرا ، فلم يضق بهم بعد اتساع الدولة ، ولم يصبهم منه حرج فى حياتهم الخاصة والعامة .

وبعد فهذه دراسات إسلامية فى علوم مختلفة من الدين ، من تفسير ، إلى توحيد ، إلى فقـــه ، إلى سيرة نبوية ، إلى غير هذا من العلوم الإسلامية ، تمتاز بالرأى المبتكر ، وترمى إلى إشاعة التجديد فى علوم الدين ، حتى تجارى فى عصرنا غيرها من العلوم الحديثة ، وتؤدى رسالتها فى الإصلاح ، ولا ينظر إليها شبابنا كما ينظرون إلى كل قديم رث ، فيعافوا النظر فيها ، ويتحولوا عن دراستها إلى دراسة العلوم التى تأتينا من أوربا وغيرها ، وتنقطع بهذا صلتهم بماضيهم ، وفى هذا ما فيه من الخطر على دينهم ووطنهم .

وهذا هو الجهاد الذى أخذت به نفسى فى حياتى ، وجعلته نُصْب عينى فى كل مؤلفاتى ، راجيـا من الله التوفيق فيه ، والمثوبة عليــه ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

المؤلف

فى علم التفسير

الحضارات القديمة فى القرآن

الحضارة البدواة فى الإسلام :

ظهر الإسلام فى أمة العرب بعد أن وصلت البداوة فيها إلى أبعد حدودها . فكانت بداوة قاسيه جاهلة ، يشتد فيها النزاع بين الأفراد والقبائل ، ويتخذ فيها السلب والنهب وسيلة لكسب العيش ، فيأكل القوى الضعيف ، ويظهر الباطل على الحق .

وكان هناك حضارتان فاسدتان يجاوران هذه البداوة الغاشمة ، إحداهما حضارة الفرس بالشرق ، والثانية حضارة الروم بالغرب ، وكان الفساد قد سرى فيهما حتى أنهكهما ، فلم يكونا أقل ضلالا من تلك البداوة العربية ، ولم يكن أهلهما أقل شقاء من أهل تلك البادية.

فكان من أهم أغراض الإسلام العمل على محو تلك البداوة بين العرب ، وإقامة حضارة جديدة خالية من الفساد الذى وقعت فيه حضارة الفرس والروم ، ليتنشر لواؤها فى الخافقين ، وترتفع فيها أعلام العدل ، ويظهر فيها الحق على الباطل ، وتقوم فيها المساواة بين الشعوب والأفراد ، فلا يأكل القوى الضعيف ، ولا يظلم الغنى الفقير ، وبهذا يسود السلام بين الشعوب ، فيركنون إلى هذه الحضارة الصالحة العادلة ، ويكونون جميعا أمه واحدة لا يمتاز فيها شعب على شعب ، ولا يكون هناك فارق بين أمة وأمة .

ولا غرو فى أن يكون مثل هذا من أغراض الإسلام ، بل لا غرو فى أن يكون هذا من أهم أغراضه ، لأنه يمتاز على غيره من الأديان بأنه لا يعمل للآخرة وحدها ، ولا يعنى بسعادة الناس فيها فقط ، بل يعمل للدنيا أيضا ، ويعنى بسعادة الناس فيها كما يعنى بسعادتهم

فى الآخرة ، ليكونوا سعداء فى دنياهم ، قبل ان يكونوا سعداء فى أخراهم .

وقد صرح القرآن بذلك الغرض العظيم فى بعض آياته ، فقال تعالى فى الآية « ٥٥ » من سورة النور (وعدَ الله الذين آمنوا منكمْ وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذينَ من قبلهم وليمكننّ لهم دينهمُ الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم منْ بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركونَ بى شيئاً ومنْ كفر بعد ذلك فأولئك همُ الفاسقونَ) .

وقد بين الله تعالى فى آية أخرى ما تمتاز به الأمة الإسلامية فى حضارتها الجديدة ، فذكر أن أهم ما تمتاز به أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، كما قال تعالى فى الآية « ١١٠ » من سورة آل عمران (كنتمْ خير أمة أخرجتْ للناس تأمرونَ بالمعروفِ وتنهون عن المنكرِ وتومنون بالله) والمعروفَ ما تستحسنه العقوَل من العدل ونحوه ، والمنكر ما تستقبحه العقول من الظلم ونحوه ، فهى أمة لا يستبد فيها الحكام ، ولا يستأثرون فيها بالأمر والنهى ، بل كل فرد فيها له حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيكون الحكم فيها شركة بين الحاكم والمحكوم ، وهذا هو أرقى أنواع الحكم ، وأجدره بتحقيق العدل بين الناس .

وقد جاء فى القرآن كلام عن البداوة العربية وأهلها ، وجاء فيه كلام عن الحضارات القديمة وأهلها ، فجاء هذا وذاك متمشيا مع ما جاء به الإسلام من ذلك الغرض السابق ، فهو إذا ذكر سكان البادية من الأعراب كان شديداً عليهم ، لجهلهم وجفوتهم وبعدهم عن الصفات التى تحبب الإسلام إليهم ، لأن الإسلام يدعو إلى النظام

والطاعة ، وهم يؤثرون الفوضى والعصيان ، ويعيشون على السلب والنهب ، ومن ذلك قوله تعالى فى الآية « ٩٧ » من سورة التوبة (الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألاّ يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله والله عليمٌ حكيم) فجعل بداوتهم سببا فى شدة كفرهم ونفاقهم وجهلهم بحدود ما أنزل الله على رسوله ، ولا يريد الله تعالى إلا أن هذا هو شأنهم وديدنهم ، وهو الطبع الغالب عليهم ، والحال الظاهر فيهم ، وقد يوجد فيهم من لا يكون على هذا الحال ، كما قال تعالى فى الآية « ٩٩ » من سورة التوبة (ومن الأعرابِ من يؤمنُ بالله واليوم الآخرِ ويتخذُ ما ينفق قُربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهُم الله فى رحمته إن الله غفورٌ رحيم) .

وكذلك قال الله تعالى فى الآية « ١٤ » من سورة الحجرات (قالت الأعرابُ آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمانَ فى قلوبكم وإنْ تطيعوا اللهَ ورسوله لا يَلِتْكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفورٌ رحيم) فذكر أن شأنهم النفاق أيضاً ، وقد نزل هذا فى قوم من الأعراب أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائل فى أهله ، فجعلوا ينادونه من وراء الحجرات : يا محمد ، أخرج إلينا . حتى أيقظوه من نومه ، وقد ندد الله بهذه الجفوة منهم قبل ذلك ، فقال فى الآيتين « ٤ ، ٥ » من هذه السورة (إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرجَ إليهم لكانَ خيرا لهم والله غفورٌ رحيم) وكان هؤلاء الأعراب من تميم ، وفيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر ، وكان من ندائهم : يا محمد ، أخرج إلينا ، فإن مدحنا زين ، وذمنا شين . فخرج النبى صلى الله عليه وسلم إليهم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى مدحه زين ، وذمه شين . فقالوا :

نحن ناس من تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا، جئنا نشاعرك ونفاخرك.
فقال لهم: ما بالشعر بعثت. ولا بالفخر أمرت، ولكن هاتوا.
فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه، فقال صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس: قم فأجبه. وكان ثابت خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، فقام فأجابه، ثم قام الزبرقان فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيعُ
وكم قسرنا من الأحياء كلهمُ ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع
فننحر الكوم عبطا فى أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استقادوا فكانوا الرأس تقتطع
فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: قم فأجبه.
فقام فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمُ ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدَثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبَع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

فكذلك أبت عليهم جفوتهم إلا أن يفاخروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يسمعوا لما ذكره من أنه لم يبعث بالشعر والفخر ، وقد فاخروه بما كانوا يفخرون به فى جاهليتهم . فقاخرهم شاعره بما جاء به الإسلام بما لا يصح الفخر إلا به ، من تقوى الله ونحوه .

وهذا كان شأن القرآن مع أهل البادية من الأعراب، وقدجاهد الإسلام فى القضاء على البداوةالعربية وآثامها حتىقضى عليها، وجعل أهلها إخوانا يرعى بعضهم بعضاً . ولا يستبيح شيئاً من ماله أو دمه، وجعل من العرب عامة أمة متآلفة متحابة ذات علم وحضارة .

أما شأنه مع الحضارات القديمة ، فإنه وقف منها موقفا عادلا ، فذم ما كان من طغيان أهلها وجبروتهم ، ومدح ما يستحق المدح من آثارها فى عمارة البلدان . وعجائب الصناعة. ونشر التجارة والزراعة، وما إلى هذا من آثار الحضارة .

الحضارة المصرية القديمة :

فذكر الحضارة المصرية القديمة . وقد كانت حضارة عظيمة يعتز الآن بها أبناء مصر. ويفدالسائحون لمشاهدة آثارها من سائر الأقطار فيتمتعون برؤية عجائبها . وتمتلىء نفوسهم روعة بمشاهدة غرائبها ، وتفعم قلوبهم إعجابا بها ، وقد جاء ذكر هذه الحضارة العظيمة فيما جاء فى القرآن من أخبار فرعون وموسى عليه السلام ؛ فمدح منها ما يستحق المدح وأثنى عليه أحسن ثناء . وهو ما كان منها متجها إلى مصلحة الرعية من تعمير الأرض ، وشق الأنهار ، والعناية بتوفير الخيرات، حتى تنمو الثروة ، وتعم الناس كلهم ، فلا يتمتع الملك وحده بثروة بلاده، وينفقها فى سبيل شهواته وملذاته .

ومن ذلك ما ورد فى وصف ما تركه فرعون بعد غرقه من آثار هذه الحضارة . كما قال تعالى فى الآيات « ٢٤ ؛ ٢٥ ؛ ٢٦ ؛ ٢٧ ـ ٢٨ .

٢٩ ، من سورة الدخان (واترك البحر رهواً إنهم جندٌ مغرقون ، كم تركوا من جناتٍ وعيون ، وزرع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهينَ ، كذلك وأورثناها قوماً آخرينَ ، فما بكت عليهم السماء وما كانوا منظَرين) وكما قال أيضاً فى الآيات « ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ » من سورة الشعراء (فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوزٍ ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل فأتبعوهم مشرقين) .

وقد ذكر المفسرون فى وصف تلك الجنات والعيون أن البساتين كانت ممتدة على حافتى النيل ، فيها عيون وأنهار جارية . وذكروا فى وصف ذلك المقام الكريم أنه أراد به مجالس الأمراء والرؤساء التى كانت لهم ، وقد قيل : إن فرعون كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلثمائة كرسى من ذهب يجلس عليها الأمراء والأشراف من قومه ، وعليهم أقبية الديباج مخوّصة بالذهب .

وقد كان للحضارة المصرية القديمة عيوب بجانب هذه المحاسن ، فندد القرآن بها تنديداً شـديداً ، وذكر أنها هى التى قضت على هذه الحضارة ، وجعلتها تنتقل إلى قوم آخرين ، لأن الحضارة ميراث فى الأرض لمن يعمل على إصلاحها ، ويقيم موازين العدل فيها ، وقد جعل الله هذا سنة من سننه فى الخلق ، كما قال تعالى فى الآية « ١٥٠ » من سورة الأنبياء (ولقد كتبنا فى الزّبور من بعد الذكر أنّ الأرضَ يرثها عبادىَ الصالحون) فالمراد بالصالحين فى هذه الآية الصالحون لعمارتها ، وإقامة معالم الحضارة فيها ، وهذا هو الذى يشهد به علم التاريخ ، لأن من ينظر فيه يجد أن الحضارة لم تثبت فى أمة من الأمم ، ولم يستأثر بها شعب من الشعوب ، بل كانت تنتقل من أمة إلى أمة ، ومن شعب إلى شعب ، وتسير فى هذا على سنن ثابت لا يتبدل ، فتجدّ الأمة وتجتهد حتى تنهض وتأخذ بوسائل الحضارة ، ثم تنظر إلى نفسها نظرة إعجاب وتأخذ فى

الظلم والطغيان، فيسلبهم الله عزهم، ويورث حضارتهم قوما آخرين يصلحون لها، حتى إذا فسدوا نقلها منهم إلى غيرهم، على سنن عادل لا يتغير

فذم الله من الحضارة المصرية القديمة ما كان منها قائماً على التفريق فى الحكم بين الشعوب، فيكون غنمه للشعب القوى، ويكون غرمه للشعوب الضعيفة التى تبتلى بحكمه، كما قال تعالى فى الآيات «٤، ٥، ٦» من سورة القصص (إنَّ فرعونَ علاَ فى الأرض وجعلَ أهلها شيعًا يستضعفُ طائفةً منهمْ يذبحُ أبناءهمْ ويستحيي نساءهمْ إنهُ كانَ منَ المفسدينَ، ونريدُ أنْ نمنَّ على الذينَ استضعِفُوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهمُ الوارثينَ، ونمكِّنَ لهمْ فى الأرض ونرىَ فرعونَ وهامانَ وجنودهما منهمْ ما كانوا يحذرونَ) وقد كان فرعون يستعبد فى ذلك بنى اسرائيل، ويستخدمهم فى مصلحة قومه من أهــــل مصر، ثم طغى فيهم حتى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، وما كان للقرآن إلا أن يذم هذا الحكم الظالم، لأنه ينشد حكما عادلا تستوى فيه الشعوب، ولا يستخدم فيه شعب لمصلحة شعب آخر، لأن هذا مما يثير الضغائن بين الشعوب، ويقيم بينها الخصومات والحروب، والحروب تعوق الشعوب عن التقدم والنهوض، وتضيع أموالها فى اقتناء وسائل الخراب والتدمير.

وهنا خطأ للمفسرين فيما كان من إرث بنى إسرائيل لفرعون وقومه، وهو الذى ورد فى قوله تعالى فيما سبق (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) فقد ذكروا أن الله رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لهم من الأموال والأماكن الحسنة، وهذا خطأ ظاهر، لأنا إذا رجعنا إلى تاريخ بنى إسرائيل وتاريخ مصر فى ذلك العهد لا نجد فيهما ما يثبت رجوع بنى إسرائيل إلى

مصر بذلك الشكل بعد خروجهم منها ، فلم يثبت فيهما أنهم رجعوا إلى مصر فملكوا فيها ما كان يملكه فرعون وقومه من الأموال والأماكن الحسنة ، وإنما ثبت أنهم استولوا على فلسطين فأقاموا فيها إلى أن زالت دولتهم ، وملكها من ظهر فيها بعدهم ، والحق أن الله تعالى يشير إلى ماأورثهم من بساتين وعيون فى فلسطين لا فى مصر ، وكان هذا بعد أن استولوا عليها ، وأقاموا فيها دولة لهم ، وقد بلغت أوج عظمتها فى عهد داود وسليمان عليهما السلام ، فالضمير فى قوله (أورثناها) يعود إلى مطلق الجنات والعيون وماذكر معها، ولا يعود إلى خصوص ما كان منها فى مصر على ذلك العهد، وهذا من أسلوب الاستخدام المألوف فى لغة العرب، ويعتمد فى بيان المراد منه على السياق وقرائن الأحوال.

الحضارة الكلدانية القديمة :

ثم ذكر الحضارة الكلدانية القديمة بالعراق ، والكلدان أمة ساميّة قديمة، كانت لهم حضارة تضاهى الحضارة المصرية فى القدم، وقد قامت حضارتهم على أساس الاهتمام بمعرفة أحوال الكواكب والنجوم ، فبرعوا فى علم الفلك ، وفى كل مايتصل به من العلوم كالسحر والتنجيم ، ولم يهتموا بالعلوم التى تعنى بالأرض من الزراعة والصناعة والتجارة، لأن جل اهتمامهم كان متجهاً إلى السماء لا إلى الأرض ، فاتخذوا من كواكبها آلهة يعبدونها ، ويشتغلون بمعرفة أحوالها ، ولا شك أن مثل هذه الحضارة تكون أقل شأناً من الحضارة التى تعنى بالأرض وعمارتها، ولهذا لا تترك آثاراً عظيمة فى الأرض مثلها ، وقد ذهبت الحضارة الكلدانية، ولم تترك وراءها إلا شهرة عاصمتها بابل بالسحر، وهى شهرة لا ترفع من شأنها ، ولا تجعل لها منزلة عالية بين الحضارات القديمة .

وقد أشار القرآن إلى مااشتهرت به بابل من السحر فى الآية

« ١٠٢ » من سورة البقرة (واتَّبعُوا ماتتلوا الشياطينُ على ملكِ سليمانَ وما كفر سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا يعلِّمونَ الناسَ السحرَ وما أنزلَ على الملكين ببابل هاروتَ وماروتَ ومايعلِّمان منْ أحدٍ حتى يقولا إنما نحنُ فتنة فلاتكفرْ فيتعلمونَ منهماما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهمْ بضارِّينَ بهِ منْ أحدٍ إلا بإذنِ اللهِ ويتعلمونَ مايضرهمْ ولاينفعهم ولقدْ علمُوا لمنَ اشتراهُ ماله فى الآخرة منْ خلاقٍ ولبئسَ ماشرَوْا بهِ أنفسهمْ لوْ كانوا يعلمون)

ولا شك أن القرآن يشير بهذا إلى ما كان من ضعف تلك الحضارة، وإلى ما كان من رواج الخرافات فيها ، باهتمامها بذلك العلم الباطل ، واستخدامه فى تلك الأغراض القبيحة ، وهو يشير أيضا إلى أن المشتغلين به كان لهم سلطان كبير فى تلك الحضارة ، حتى كانوا أصحاب الأمر والنهى فيها ، لأنهم كانوا يوهمون الناس بأن لهم قوة غيبية وراء الأسباب التى ربط الله بها المسببات فى الدنيا ، فيفعلون أمامهم مايوهمونهم به أن لهم استعدادا فوق استعدادهم ، وقوة فوق قوتهم، وأنهم يستعينون على سحرهم بالشياطين وأرواح الكواكب ، إلى غير هذا من ضلالهم وجهلهم ، وقد أراد الله أن يظهر لهم أمر هذا العلم الباطل ، فأرسل إليهم هاروت وماروت يعلمانهم حقيقته ، ويبينان لهم أن المشتغلين به بشر مثلهم ، لاقدرة لهم على النفع والضر ، وأن السحر إما شعوذة لاأصل لها ، وإما صناعة خفية يعرفها بعض الناس ، وحينئذ يكون فى استطاعة كثير من الناس أن يتعلمه ، وأن يقوم بما يقوم به المشتغلون به من الأمور الغريبة ، فلا يكون راجعا إلى قوة غيبية فيهم كما يزعمون ، ولاأثر فيه للشياطين وأرواح الكواكب ، ولكنه ليس من العلوم التى يليق الاشتغال بها ، لأنه

يضر ولا ينفع . فلا يشتغل به ذو خلق كريم . وإنما يشتغل به كل دجّال مُشَعْوِذ .

الحضارة الحميرية القديمة.

ثم ذكر الحضارة الحميرية القديمة باليمن ، والحميريون ينسبون إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان لهم ملك عريق باليمن ، وحضارة يشهد بفضلها ما بقي من آثارها ، ومن أشهر دولهم في اليمن دولة سبأ ، وكانت دولة تجارية عظيمة ، وكان أهلها يشتغلون بنقل التجارة بين الهند والحبشة والعراق والشام ومصر ، فنمت ثروتهم بالتجارة ، وزهت حضارتهم بوفرة ثروتهم ، وكانت حضارة مثمرة نافعة ، تعنى بعمارة البلدان وشق الأنهار ، وإقامة السدود التي تحفظ المياه بين الجبال ، لتوزع على الأرض المزروعة بقدر حاجتها إليها ، ولا يذهب منها شيء سدى ، فعمرت بهذا بلاد اليمن ، وشيدت فيها القصور العظيمة ، وانتشرت فيها الزروع والحدائق . حتى كانت تعرف قديماً بالبلاد السعيدة .

وقد نوه القرآن بحضارة سبأ حين ذكرها تنويها عظيما ، وجعلها لعظمتها آية من آيات الله ، فقال تعالى في الآيات « ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ » من سورة سبأ (لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ جنتانِ عن يمينٍ وشمال كلوا من رزقِ ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبة وربٌ غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتينِ ذواتَى أكلٍ خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرًى ظاهرةً وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعدْ بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديثَ ومزقناهم كل ممزّق إنّ في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور) .

وقد ذكر المفسرون فى عظمة تلك الجنات أن المرأة كانت تحمل مكتلها على رأسها وتمر به، فيمتلىء من أنواع الفواكه من غير أن تمس بيدها شيئاً . وذكروا فى عظمة تلك البلدة الطيبة أنه لم يكن يرى بها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب ، وأن الرجل كان يمر بها وفى ثيابه القمل فيموت من طيب الهواء، وذكروا فى عظمة تلك القرى الظاهرة أنها كانت تتواصل من اليمن إلى الشام، فإذا سافروا فيها لمتاجرهم يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى . وكلما وصلوا إلى قرية وجدوا فيها المياه والزروع والأشجار . فلا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام . وقد أشار القرآن بهذا إلى ما كان من قيام عظمة تلك الدولة على الاهتمام بالتجارة ونقلها بين تلك البلاد . كما أشار بقوله (باعد بين أسفارنا) إلى أن زوال عظمتها كان بسبب انتقال زمام هذه التجارة من أيدى أهلها إلى أيد أخرى . وقد أيد التاريخ الحديث هذه الإشارة ، فذكر أن هذه الدولة مكثت ناهضة إلى أن انتقلت التجارة من أيدى أهلها بسبب انتقال طريقها من البر إلى البحر . فأدى بها هذا إلى الضعف ، حتى عجزت عن حفظ السدود التى كانت تحجز المياه لسقى زروعها وأشجارها . فأخذت تنهار سدا بعد سد ، حتى انتهت بانهيار سد مأرب ، وفى هذا ما يدل على أن القرآن من عند الله تعالى ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى أميته بحيث يصل إلى ما وصل اليه التاريخ الحديث فى عصرنا ، وهو لم يصل اليه إلا بعد جهود مضنية فى كشف آثار تلك الدولة .

حضارة بنى إسرائيل :

ثم ذكر حضارة بنى إسرائيل حين وصلت إلى أوج عظمتها فى عهد داود وسليمان عليهما السلام ، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله ، وكان بنو إسرائيل قد انتقلوا إلى مصر فى عهد

يوسف بن يعقوب ، فأقاموا فيها إلى أن بعث فيهم موسى عليه السلام ، وكان أهل مصر يدينون بالوثنية ، وكان بنو إسرائيل يدينون بالتوحيد ، فلقوا بسببه ما لقوا فى مصر من الذل والهوان ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار دين التوحيد فى الأرض ، وإقامة حضارة له تقوم على أساس رفع شأن الإنسانية ، وتخليصها مما تردت فيه من جهالات الوثنية ، وإنقاذها من طغيان ملوكها وكهنتها ، وقد بشر الله بهذه الحضارة قبل ظهورها تنويهاً بشأنها ، وتعظيماً لقدرها ، فقال تعالى فى الآيات « ٤ ، ٥ ، ٦ » من سورة القصص (إنَّ فرعون علا فى الأرضِ وجعل أهلها شيعاً يستضعفُ طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أنْ نمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثينَ ، ونمكّن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يحذرونَ) .

فهو ينقم جبروت هذا الجبار الوثنى ، ويبشر الذين استضعفهم بأنه سيورثهم الأرض بعده ، فتأخذ دولتهم فى الظهور إلى أن تضعف من شأن الوثنية ، وتكون لها بعدها السيادة على الأرض ، وهو فى هذا لا ينقم ظلم اليهود (بنى إسرائيل) بعنوان أنهم يهود ، ولا يبشر بظهور دولة لهم بخصوصهم . وإنما يتحدث عنهم فى ذلك بعنوان أنهم شعب موحد ، فيبشرهم بذلك لأنهم موحدون لا يهود ، ويكون شأن غيرهم من الموحدين فى ذلك كشأنهم ؛ فتقوم لهم جميعاً دول تغلب على الأرض ، وتظهر لهم حضارات أعلى من الحضارات الوثنية ، وقد بدأ هذا بظهور دولة اليهود فى فلسطين ، فقام فيها كثير من الأنبياء يدعون إلى التوحيد ، وكانت دعوتهم خاصة ببنى إسرائيل إلى أن قام فيهم عيسى عليه السلام ، فجاوزت دعوته أرض فلسطين ، ودانت بها

دولة الروم ، وكانت دولة قوية تملك نصف الكرة الغربى ، ثم ظهر من بين العرب إمام من أولئك الأئمة الموحدين الذين بشر الله بهم ، فنشر دين التوحيد فى نصف الكرة الشرقى ، وزاحم دولة الروم فى نصفها الغربى ، وتمت بهذا غلبة دول التوحيدعلى الأرض ، وصدقت بشارة الله تعالى بهذه الغلبة .

وقد أشار القرآن إلى غاية ما وصلت إليه حضارة بنى إسرائيل فى عهد داود وسليمان عليهما السلام ، ونوه بها فى آيات كثيرة فى بعض سوره ، فقال تعالى فى الآيات « ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ » من سورة سبأ (ولقد آتينا داودَ منا فضلا ياجبال أوِّبى معهوالطيرَ وألنّا له الحديد أنِ اعمل سابغات وقدِّر فى السردِ واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير ، ولسليمان الريح غدُوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القِطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغْ منهم عن أمرنا نذقْه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات اعملوا آلَ داود شكراً وقليل من عبادىَ الشكورُ) وهذا يشير إلى ما كان من ارتقاء العلوم والآداب فى ذلك العهد ، وإلى ما كان من تقدم الصناعة فيه ، وإلى ما كان من تقدم التجارة أيضا ، وقد كان لسليمان عليه السلام أسطول تجارى عظيم ، وكان يشق البحار غربا إلى بلاد الأندلس ، وجنوبا إلى بلاد اليمن وجنوب أفريقية ، وكانت سماء فلسطين تلمع فى عهده بما أقامه فيها من المدن العظيمة ، وبما شيده فيها من القصور الجميلة ، وما أنشأه من بيوت العبادة الضخمة ، وكان من أعجب ما شيده ذلك الصرح الذى ورد ذكره فى الآية «٤٣» من سورة النمل (قيل لها ادخلى الصرحَ فلما رأته حسبته لجّة وكشفتْ عن ساقيها قال إنه صرح ممرّد

من قوارير) وكان سليمان قد بنى هذا الصرح لبلقيس ملكة سبأ ، وقد ذكر المفسرون أنه كان قصراً من الزجاج الأبيض كالماء ، وقد أقامه على ماء يجرى تحته ، وألقى فيه السمك والضفادع وغيرها من دواب البحر ، ثم وضع سريره فى صدر المجلس وجلس عليه ، فلما جاءت بلقيس لتدخل عليه حسبت هذا القصر لجة عظيمة من الماء ، فكشفت عن ساقيها لتخوضها إليه ، فقال لها : إنه صرح ممرد من قوارير .

وقد كان داود وسليمان نبيين من أنبياء الله تعالى ، وفى ظهور هذا كله فى عهدهما حجة على اعداء التوحيد الذين يظنون أنه يجافى معالم الحضارة ، ويبغض مظاهر الجمال ، ولا يتسع لها كما تتسع الوثنية . كما أن فيه حجة أخرى على المتنطعين فى الدين ، لأنهم يظنون أنه ليس إلا خشونة وتقشفا ، وأنه لا يعرف شيئا من لين الحياة وطيبها .

وقد انتهت حضارة بنى إسرائيل بما انتهت به الحضارات الوثنية قبلها ، لأن سنن الله واحدة فى الحضارة ، فلا محسوبية فيها ولا محاباة ، وقد ظن بنو إسرائيل أن ما وصلوا إليه فى الدين والحضارة كان عن إيثار من الله لهم عن غيرهم من الشعوب ، فزعموا أنهم شعب الله المختار ، وركنوا إلى الجهل والغرور ، فضعفت عزائمهم وفترت هممهم ، حتى استعبدهم رؤساؤهم وأحبارهم ، وضعفت دولتهم بضعفهم . وذهبت كما ذهب غيرها من الدول .

الحضارة اليونانية :

ثم ذكر حضارة اليونان فى عهد الإسكندر المقدونى ، واليونان من الجنس الآرى ، وهم أول من حمل لواء الحضارة من هذا الجنس ، وتمتاز حضارتهم بطابعها العلمى ، وأنها كانت نهضة علمية وضعت حدا فاصلا فى التاريخ ، وجعلت العلم يقوم على أساس النظر والبحث ،

ورتبته ترتيبا لا يزال العلماء يراعونه إلى عصرنا الحاضر ، وإذا كان غيرها من الحضارات قد ترك لنا أحجارا مشيدة فإنها قد تركت لنا أعلاما فى العلم ، لا يزال الناس عالة على علمهم، كفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم .

وقد وصلت هذه الحضارة إلى أوج عظمتها فى عهد الإسكندر المقدونى ، وهو أعظم فاتح فى العصر القديم ، ويمتاز على غيره بأنه كان يقصد من فتحه نشر الثقافة العلمية التى وصلت إليها الحضارة اليونانية، ليقرب بين شعوب الغرب والشرق ، ويوحد بين الأجناس البشرية المختلفة ، وهذه غاية شريفة يحمد عليها ، وسعيه فيها يشبه سعى الأنبياء ، ولكنهم كانوا يعتمدون فى سعيهم على الوحى، أما هو فكان يعتمد فى سعيه على العقل .

وقد ذكر القرآن ما كان من الإسكندر المقدونى فى الآيات « ٨٣ — ٩٨ » من سورة الكهف (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذِكراً ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً ، فأتبع سبباً ، حتى إذا بلغ مغربَ الشمس وجدها تغربُ فى عين حمئة ووجد عندها قوماً ، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذبَ وإما أن تتخذ فيهم حسناً ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردُّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقولُ له من أمرنا يسراً ، ثم أتبع سبباً ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعلْ لهم من دونها ستراً، كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادونَ يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوجَ ومأجوجَ مفسدونَ فى الأرض فهل نجعل لك خَرجا على أن تجعل بيننا وبينهم

سدًّا ، قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعلْ بينكم وبينهم رَدماً ، آتونى زُبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدَفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغْ عليه قِطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نـقباً ، قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكا وكان وعد ربى حقاً) .

فذو القرنين الذى ذكر الله فتوحاته فى هذه الآيات هو الإسكندر المقدونى عند كثير من المفسرين ، وقد كان أبوه فيليب ملكا على مقدونيا ، فعمل على أن يجمع بين البلاد اليونانية فى حلف تتولى مقدونيا زعامته ، ليوجه قوة اليونان بعد توحيدها نحو الفتح الخارجى ، وقد عنى بتربية ابنه الإسكندر ، فأحضر له أرسطو أشهر فلاسفة اليونان ، ليأخذ عنه العلم والفلسفة ، فرباه أحسن تربية ، وثقفه ثقافة علمية واسعة ، حتى نشأ محبا للفلسفة والعلم ، وقد مات أبوه قبل أن يصل إلى غايته من توحيد قوة اليونان ، وتوجيهها نحو الفتح الخارجى . وكان ابنه الإسكندر يبلغ إحدى وعشرين سنة ، فخلفه على عرش مقدونيا ، وعمل على تحقيق الغاية التى أرادها ، فأخضع بلاد اليونان كلها لسلطانه ، ثم توجه نحو الفتح الخارجى ، فعبر مضيق الدردنيل إلى الأناضول ، وكان تحت يد دولة الفرس ، فانتزعه منها ، ثم اتجه غربا نحو الشام ومصر ، فانتزعهما أيضا من دولة الفرس ، وما زال يسير غربا حتى بلغ واحة سيوة ، وكان فيها عين يقدسها أهلها تسمى عين الشمس . وهى العين الحمئة أو الحامية التى جاء فى الآيات السابقة أنه بلغها فى فتوحاته الغربية . ثم عاد فاتجه نحو الشرق قاصداً بلاد الفرس ، ليقضى على دولتهم فيها ، فقتل ملكهم دارا واستولى على مملكته ، ثم جاوزها شرقا حتى بلغ سهول الهند الشمالية . ووصل

إلى بلاد الترك وهى بلاد يأجوج ومأجوج التى جاء فى الآيات السابقة أنه بلغها فى فتوحاته الشرقية .

ولا شك أن اتجاه هذه الفتوحات يوافق اتجاه الفتوحات التى نسبت فى الآيات السابقة إلى ذى القرنين ، فيكون ذو القرنين فيها هو الإسكندر المقدونى ، وهذا الى أن الإسكندر المقدونى كان يلقب بذى القرنين ، وفى حمل القرآن عليه جمع بينه وبين ما ثبت فى التاريخ الصحيح ، بخلاف حمله على غيره ممن ذهب اليه بعض المفسرين ، فإنه لا يزال يُعْوِزُه سند من التاريخ الصحيح ، ولا يوجد من الاعتراض على أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى إلا أنه كان على مذهب فلاسفة اليونان ، وهو مذهب باطل لا يوافق ما جاء فى القرآن عن ذى القرنين ، لأنه يفيد أنه كان مؤمنا ، وأن الله كان يخاطبه ويوجهه فى فتوحاته ، والجواب عن هذا أن مذهب فلاسفة اليونان كان قائماً على الإيمان بالله ، وقد كان من هؤلاء الفلاسفة من ادعى الإلهام والوحى كفيثاغورث وسقراط ، ولا يوجد فى الإسلام ما يمنع من قبول دعواهما ، لأن القرآن صريح فى أنه ما من أمة إلا وقد بعث فيها رسول ، كما قال تعالى فى الآية «٢٤» من سورة فاطر (إنا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإنْ مِنْ أمة إلا خلا فيها نذيرٌ) ولهذا يوجد لهذه الفلسفة كثير من الأنصار بين اليهود والنصارى والمسلمين ، لا يرون أنها تخالف دياناتهم ، ولا يذهبون إلى تكفير أصحابها كما يذهب غيرهم ، وإنى لا أتمسك كثيراً بأنه كان فى هذه الفلسفة إلهام ووحى ، ولكن هذا لا ينقص من قدرها ، لأن أصحابها إذا كانوا قد اجتهدوا بعقولهم فإنهم قد وصلوا بها إلى أسمى

المعارف التي وصلت العقول إليها في العصور القديمة ، فآمنوا بأن هناك مدبرا لهذا الكون ، ووصلوا إلى كثير من حقائقه وأسراره ، ومثل هذا لا شيء على القرآن في أن ينوه بملك كان يعمل على حمايته ، وتقوم فتوحاته لأجل نشره ، وقد تكون له بعض أخطاء في ذلك ، ولكنه لا يؤاخذ شرعا عليها ، لأن المؤاخذة إنما تكون مع الوحي والرسالة .

هل ذو القرنين هو الإسكندر أو كورش

ذكر الأستاذ إبراهيم الدسوقى فى العدد « ٥٠٦ » من مجلة الرسالة أن بعض المؤرخين يزعم أن الإسكندر المقدونى هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ، مع انه لم يذكر فيه إلا بعد أن سأل اليهود عنه ، لأنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن رجل جاب الدنيا شرقا وغربا ، وكان له ملك عظيم ، وهم يقصدون به ذا القرنين المذكور فى التوراة ، فقد رأى دانيال فى المنام كبشا ذا قرنين ، ففسر بمملكة فارس التى لم تكن قد ظهرت بعد ، ورأى كبشا آخر ذا قرن واحد يهجم على هذا الكبش ذى القرنين ويقتله ، ففسر بملك من اليونان يظهر ويقضى على دولة الفرس ، وعلى هذا يكون المقصود بذى القرنين دولة فارس التى أسسها الملك كُورش ، ويكون المقصود بذى القرن الواحد الإسكندر المقدونى ، لأنه هو الذى قتل دارا الثالث وقضى على دولة الفرس .

وكانت دولة فارس عاصمتها سوس فى الجنوبى الغربى لإيران ، وكانت تتألف من الشعب الفارسى فى الجنوب والميديين فى الشمال ، والقرنان إشارة الى هذين الجنسين ، والقرن الواحد إشارة الى اليونان ، لأنهم جنس واحد ، وكانت دولة فارس تملك التركستان فى وسط آسيا ، وبابل فى حوض نهرى دجلة والفرات فى الجنوب ، وآشور فى شمال بلاد النهرين ، وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، فالآيات القرآنية الواردة فى ذى القرنين هى تاريخ دولة الفرس من أولها الى آخرها ، وقد رفع القرآن ذا القرنين الى مرتبة المؤمنين ،

مع أن الإسكندر المقدونى كان وثنيا يدعى أنه ابن الإله آمون ، وكان متهتكا يميل الى الفجور وشرب الخمر ، فلا يعقل أن يكون هو ذا القرنين ، وإنما هو كورش الذى اتجه غربا ففتح بلاد سورية حتى بلغ البحر الأبيض المتوسط ، فوجد الشمس تغرب فيه ، وهو الذى أقام سد يأجوج ومأجوج ، وهو الآن فى موضع يسمى « دربند » ومعناها السد ، وهو أثر سد قديم بين الجبال فى بلاد التركستان ، ويروى أنه كان خلفه قديما قبيلتان تسميان ياقوق وماقوق ، وقد غار بفعل الزلازل .

ولا شك أن رؤيا دانيال ليست نصا فى أن ذا القرنين فيها هو كورش ، لأنه يجوز حمله على غيره بمثل ما حمل عليه . ولا سيما أنه لم يعرف بهذا اللقب بعد ظهوره ، أما الإسكندر المقدونى فكان يعرف بذى القرنين ، جاء فى مجلة المقتطف أنه عثر على نقود مضروبة فى عهده وفيها صورته والتاج بقرنيه على رأسه ، أما دعوى أنه كان وثنيا فلا أدل على بطلانها من أنه كان تلميذا لأرسطو، وكان أرسطو رأس فلاسفة اليونان ، والفلسفة اليونانية تقوم على أساس الإيمان بعلة واحدة لهذا الكون ، ولهذا رأى كثير من فلاسفة اليهود والنصارى والمسلمين أنه لا خلاف بينها فى ذلك وبين اليهودية والنصرانية والديانة الإسلامية ، ولا ينافى هذا ما كان يفعله الإسكندر مع آلهة البلاد التى كان يفتحها ، لأنه كان يتظاهر باتباع ديانة ما يفتحه من البلاد وإن لم تكن صحيحة عنده ، ليتقرب بهذا الى أهلها ، كما جاء فى كتاب مناهج الألباب المصرية لرفاعة بك ، على أن تلك الآلهة كانت فى أصلها رجالا من الصلحاء ، فبالغ قومهم فى تعظيمهم حتى عبدوهم وجعلوهم آلهة ، ومن الممكن أن يكون تعظيم الإسكندر لها

لم يكن على وجه العبادة ، بل بالنظر الى أصلها قبل أن تتخذ آلهة ، ومثل هذا ليس فى شيء من الوثنية ، والحقيقة أن كورش أبعد عن الإيمان من الإسكندر ، لأن الفرس كانوا مجوسا يدينون بآلهة متعددة، على أن الأستاذ الدسوقى قد حمل ذا القرنين على دولة الفرس كلها ، ولا شك أن هذا لا يطابق سؤال اليهود. لأنهم سألوا عن رجل واحد لا عن دولة وملوك متعددة .

وقد عاد الأستاذ الدسوقى إلى تأييد رأيه ، فذكر أن الفُرْس لم يكونوا وثنيين ، وأن كورش ومن بعده من الملوك إلى دارا كانوا على دين زرادُشْتَ نبي الفرس ، وكان له كتاب مقدس يسمى أوستا ، ولهذا عامل المسلمون الفرس حين فتحوا بلادهم معاملة أهل الكتاب ، وإن كانوا قد حرفوا دياناتهم ، ودانوا بإله الخير وإله الشر ، وكورش هو الذى أعاد بناء بيت المقدس ، وقمبيز هو الذى حطم أصنام المصريين حين فتح بلادهم ، وآيات القرآن فى ذى القرنين موافقة لحال كورش بشكل ظاهر ، فقد اتجه فى فتوحه غرباً أولا ، حتى وصل إلى البحر واستولى على سوريا وآسيا الصغرى ، ثم اتجه بعد هذا شرقاً ، حتى وصل إلى الهند والتركستان ، حيث توجد آثار السد القديم ، ولا يزال مكانه بين جبلين ، ويسمى دربند ، أى السد ، أما الإسكندر فإنه اتجه شرقاً أولا ، ثم اتجه جنوباً ، ولم يتجه غرباً إلا عند فتحه مصر ، وهذا خلاف ماجاء فى ذى القرنين من القرآن ، كما أنه خلاف ماجاء فى التوراة من حمل ذى القرنين على ملوك فارس .

ولا شك أنه فى أول كلامه هنا يرى أنَ ذا القرنين هو كورش وحده من ملوك فارس ، ولكنه يعود فينقضه ويرجع إلى ما ذكره قبل ذلك من أن ذا القرنين يمثل ملوك فارس كلهم ، على أن ما ذكر

من موافقة ما جاء فى ذى القرنين من القرآن لحال كورش باطل من وجوه :

١ — أن بلاد فارس تقع فى جنوب آسيا ، فإذا اتجه كورش منها إلى سوريا وآسيا الصغرى يكون متجها شمالا لا غربا ، وهذا إلى أن سوريا وآسيا الصغرى تقعان فى قلب المعمور من نصف الكرة القديم ، فلا يقال فيمن وصل إليهما إنه بلغ مغرب الشمس ، وإنما يقال فيمن وصل إلى أوائل بلاد المغرب على الأقل .

٢ — أن كورش حينما اتجه إلى السكيثين (التتر) لقيته الملكة طوميريس ، فوقعت بينهما حرب انتهت بأسره وقتله ، وهذا لا يوافق ما ذكره القرآن فى ذى القرنين حين وصل إلى بلاد التتر ، لأنهم لم يقتلوه كما قتلوا كورش ، بل بنى دونهم سدا لم يستطيعوا أن يظهروه ولم يستطيعوا له نقبا .

٣ — أن رؤيا دانيال ليس فيها إلا تمثيل دولة الفرس بكبش ذى قرنين ، وتمثيل دولة اليونان بتيس ذى قرن واحد ، وهذا لا يقتضى تلقيب ملوك فارس بلقب ذى القرنين ، كما لم يقتض تلقيب ملوك اليونان بذى القرن الواحد .

أما الإسكندر فإنه كان يلقب بذى القرنين كما ذكره كثير من المؤرخين ، وقد اتجه فى فتوحاته من اليونان إلى آسيا الصغرى ، فحارب فيها دارا وهزمه ، ثم اتجه إلى سوريا ومصر حتى وصل إلى واحة سيوة ، وهى فى أوائل بلاد المغرب ، وبهذا يمكن أن يقال إنه وصل إلى مغرب الشمس ، أى إلى بلاد المغرب ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه إلى الشرق ، وفتح بلاد فارس وما وراءها حتى وصل إلى بلاد الترك ، وهذا يوافق ما جاء عن ذى القرنين فى القرآن ولا يخالفه فى شىء .

وقد حاول الأستاذ الدسوقى أن ينفى الوثنية عن ملوك الفرس بنسبتهم إلى زرادشت ، ولكن هذا لا يوافق ما جاء فى التاريخ عن أسياج جد كورش لأمه ، فقد جاء فيه أنه دعا أرباغوبس من حاشيته ليحضر ما يقدمه من قربان لآلهته شكراً لهم على سلامة كورش ، فقدم لأرباغوس لحم ابنه مطبوخاً فأكله ، لأنه لم يقتل كورش حين سلمه إليه وهو وليد ليقتله ، وكذلك كان كورش وقمبيز وغيرهما من ملوك فارس ، وهذا لا يمنع أن بعضهم كان يؤمن بإله اليهود مع آلهته ، لأن هذا لا ينفى الوثنية عنه ، وإنما ينفيها الإيمان بالله وحده .

أما الإسكندر فقد سبق إثبات إيمانه ، على أن المهم فى ذلك أن اليهود الذين سألوا عن ذى القرنين كانوا يعتقدون فى الإسكندر قريبا من اعتقادهم فيه ، فقد ذكر مؤرخوهم أنه لما قصد أورشليم لفتحها سار فى بعض الطرق فرأى رجلا بهيا لابسا ثيابا بيضا وبيده سيف مثل البرق اللامع ، يشير به إليه كأنه يريد قتله ، ففزع منه وعلم أنه ملاك مرسل من الله تعالى ، فسقط على وجهه وسجد ، ثم قال : ياسيدى ، لماذا تقتل عبدك ؟

فقال : لأنك تريد أن تمضى إلى القدس لتهلك كهنته وأمته ، وأنا الملاك الذى أرسلنى الله لنصرتك على الملوك والأمم .

فقال الإسكندر : يا سيدى ، اغفر لعبدك فقد أخطأت ، وإن كنت لا تشاء أن أسير فى طريقى فإنى أعود إلى بلادى .

فقال له : أمَا وقد استغفرت من مأثمك فلا ترجع ، وإذا وصلت إلى أورشليم ورأيت رجلا على صورتى ، فانزل عن فرسك واسجد له ، واقبل جميع ما يأمرك به .

فمضى الإسكندر فى طريقه إلى أورشليم، ولما وصل إليها قابله كاهنها

على صورة ذلك الملاك ، فنزل عن فرسه وسجد له وسلم عليه وعظمه ، وحمل إلى بيت الله مالا كثيرا ، ثم سأل الكاهن أن يتوسل إلى الله فيما عزم عليه من محاربة دارا ملك الفرس ، فقال له : أيها الملك ، إمض فى طريقك فإن الله معك ، وهو يظفرك بدارا ومملكته . فسار الإسكندر بعد هذا فتوجه إلى ملك أقاليم الدنيا السبعة[1] .

فالإسكندر عند اليهود كان ملكا يشبه أن يكون نبيا ، وقد جاب الدنيا شرقا وغربا حتى ملك أقاليمها السبعة . فإذا كان الأستاذ الدسوقى يعول على شهادتهم فهذه شهادة صريحة منهم فى إيمان الإسكندر ، وهذا إقرار صريح منهم بأنه جاب الدنيا شرقا وغربا حتى ملك أقاليمها السبعة ، وحينئذ يكون هو المراد من سؤالهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، لأن صيغة سؤالهم لا تختلف فى شىء عما يعتقدونه فى أمره .

ولاشك أن الإسكندر لم يملك الأقاليم السبعة كما كانوا يعتقدون ؛ ولهذا لم يذكر القرآن فى ذى القرنين أنه ملك الأرض كلها ، ويمكن أن يراد بملكه أقاليم الأرض ما كان من تفرده بالملك فى عصره ، لأنه قهر أكثر ممالك الأرض ، فظهر ملكه فيها ظهورا قويا ، ولم يكن هناك ملك مثله يذكر معه .

ولا أنكر بعد هذا أن المؤرخين اختلفوا فى ديانة الإسكندر اختلافا كبيرا ، وإنى أرى أن أسوأ رأى فى ديانته لا يمنع أن يحمل عليه ذو القرنين المذكور فى القرآن ، لأنه كان فاتحا عظيما بقطع النظر عن ديانته ، وقد ابتدأ التاريخ به عهدا جديدا فى الأرض ، لأن فتوحه لم تكن كفتوح الملوك قبله ، إذ كانوا يدمّرون البلاد ، ويهلكون العباد ، كما قال تعالى فى الآية «٣٤» من سورة النمل (إنّ الملوكَ إذا

---

(١) تاريخ يوسيفوس ص ٢٦ — ٣٨ .

دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة) أما الإسكندر فإنه كان كلما فتح بلاد أسس فيها وجدد ، وبنى وشيد ، وهيأ وسائل العمران ، وأحيا قلوب أهل البلدان ، وكان يرمى بفتوحه إلى غرض لم يقصده فاتح قبله ، وهو أن يجعل من شعوب الأرض أمة واحدة، لافرق فيها بين شعب وشعب ، وقد ألف بهذا بين الشعوب الأوربية والآسيوية ، وجمع بين بعضها وبعض . فعرف كل شعب منها ماعند الآخر من العلوم والأخلاق والعادات ، ونشأ من هذا حضارة جديدة أرقى مما سبقها من الحضارات ، ومثل هذا يستحق التنويه بشأنه بقطع النظر عن ديانة صاحبه ، ولا شيء فى أن ينوّه القرآن الكريم به .

هل رجع بنو إسرائيل إلى مصر

أنكر بعض العلماء ما ذكرته فى العدد « ٤٩٩ » من مجلة الرسالة من أن بنى إسرائيل لم يرجعوا الى مصر بعد خروجهم منها مع موسى عليه السلام ، لأن جمهور المفسرين على خلاف ماذكرته ، ولم يخالف فيه إلا قليل منهم ، لأنه عندهم هو الظاهر من قوله تعالى (ويستخلفكم فى الأرض) وقوله تعالى (قلنا منْ بعده لبنى إسرائيل اسكنُوا الأرض) وقوله تعالى (وأورثناها بنى إسرائيل) وقد أيد ما ذهب اليه جمهور المفسرين من ذلك بأنه اذا لم يرد فى التاريخ ما يؤيده فلا اعتداد به . وكذلك لا اعتداد بكتب اليهود التى لم يرد فيها مايثبت رجوع بنى إسرائيل الى مصر ، لأن الكذب فيها كثير ، وفى القرآن الكريم كفاية عنها ، على أن الألوسى ذكر فى تفسيره أنه رأى فى بعض الكتب أن بنى إسرائيل رجعوا الى مصر ، ومكثوا فيها عشر سنين . وكذلك ذكر صاحب كتاب الأصول البشرية أن موسى بعد أن هزم فرعون الذى فر الى بلاد الحبشة حكم مصر ثلاث عشرة سنة . وكذلك ذكر صاحب المنار أن المؤرخ مانيتو أورد وثيقة طويلة جاء فيها أن موسى حكم مصر بعد فرعون ثلاثة عشر عاما .

وانى أرى أن دعوى أن ظاهر القرآن يفيد رجوع بنى إسرائيل الى مصر غير صحيحة ، لأن الله قد بين الأرض التى أورثها بنى اسرائيل فى الآيات السابقة . فقال تعالى (وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفونَ مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمتْ كلمة ربِّك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمَّرنا ما كان يصنع فرعونُ

وقومُه وما كانوا يعرشونَ) فذكر هنا أن الأرض التى أورثها بنى اسرائيل هى الأرض المقدسة ، وهى أرض فلسطين لا مصر ، لأنها هى الأرض التى قدسها الله تعالى فى قوله (ياقوم ادخلوا الأرضَ المقدّسة التى كتب الله لكم) وذكر أنه بارك فيها بقوله (سبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حولَهُ) وهذا إلى أنه ذكر أنه دمر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ، فلم يكن هناك ما يمتن بأنه أورثه بنى إسرائيل .

وقد فصل الله تعالى فى القرآن ما جرى لبنى إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر ، وكرره فى سور كثيرة ، وذكر من ذلك أنه أمرهم بدخول الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، فهابوا قتال أهلها ، وأنه جزاهم على هذا بضرب التيه عليهم ، فمكثوا أربعين سنة يتيهون فى صحراء سينا ، حتى ذهب ذلك الجيل الذى نشأ على الضعف فى أرض مصر ، وظهر جيل جديد ربى تربية حربية قوية ، وكان موسى قد مات فى تلك المدة ، فقام فيهم خليفته يوشع ، وذهب بهم إلى الأرض المقدسة فافتتحها .

ولم يذكر الله تعالى فيما فصله وكرره من ذلك أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ، وامتلكوا أرضها وزروعها وجناتها ، وهو لو صح حادث عظيم ما كان الله تعالى ليهمل تفصيل خبره ، على أنهم بعد أن عبروا البحر ظهر عليهم العجز والضعف ، ولم يمكنهم أن يذهبوا إلى فتح الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، فلا يعقل أن يقووا فى هذه الحال على فتح أرض مصر ، وهى أوسع رقعة من أرض فلسطين ، وأهلها أكثر عدداً من أهلها ، وهذا إلى أنهم كانوا فى عقاب من الله تعالى بضرب التيه عليهم ، فكيف يفتح لهم أرض مصر فى هذه الحال ، وكيف يمن عليهم بزروعها وجناتها ، ومن يغضب الله عليه

لا يكون أهلا لنعمته ومَنِّه ، بل يكون أهلا لحرمانه وعقابه ، كما هى سنته فى خلقه ، ولن تجد لسنته تبديلا .

ولا شك بعد هذا فى أن ظاهر القرآن الكريم ليس فى هذا الموضوع على ما ذكره جمهور المفسرين ، وإنما هى غفلة ظاهرة عما تفيده الآية السابقة من أن الأرض التى أورثها الله بنى إسرائيل هى الأرض المقدسة ، وليست هى أرض مصر .

وهذا هو الذى يوافق المعروف الآن من تاريخ مصر القديم ، وقد اتسع العلم به ، ووضحت الكشوف الأثرية والتاريخية كثيراً من أمره ، فصار بحيث يصح الاعتماد عليه فى ذلك ، وينبغى النزول فيه على حكمه .

وهو كذلك يوافق المعروف من تاريخ بنى إسرائيل ، ولا يصح الطعن على المعروف من أخبارهم إلا إذا دعت إليه ضرورة شديدة ، ولا ضرورة تدعو هنا الى مخالفته ، وتحوجنا الى الطعن فيه .

أما تلك الروايات الضعيفة التى ذكرت فى المنار وغيره فلا يصح الاعتماد عليها ، ولا يصح أن يفسر القرآن الكريم بها ، وهى روايات مبتورة لا تبين لنا كيف ملك موسى مصر ، ولا كيف تركها بعد أن تمكن من ملكها ، ومثل هذا لا يصح أن يعول عليه ، وإنما يعول على الروايات المحققة ، ويعتمد على الأخبار المفصلة .

الفن القصصى فى القران

ألف الأستاذ محمد خلف الله رسالة بهذا الاسم (الفن القصصى فى القرآن) ليأخذ بها شهادة عالية من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، فأثارت فتنة دينية بين الناس ، وأخذ بعضهم يتهمه فى دينه وعقيدته . ويحكم بكفره وإلحاده ، ومثل هذا ليس من الجدال الكريم الذى أمرنا القرآن به فى شىء ، وليس من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التى أمرنا بها فيه أيضاً ، وكثير من الناس فى عصرنا يذهب مذاهب يثير بها مثل هذه الفتنة بين الناس ليرموه بالكفر والإلحاد ، فيظهر باسم العالم الحر الذى لا يتقيد بالتقاليد ، ويمثل بيننا ما مثله غاليلو وغيره من فلاسفة أوربا ، فقد اضطهدهم رجال الكنيسة فيها على بعض آرائهم ، فنالوا بهذا من الشهرة العلمية ما نالوا ، وصاروا قادة الفكر الحر فى هذا العصر .

فلنقتصر على تخطئة من يذهب به عندنا حب الشهرة الى الشطط فى الرأى ، ولنبخل عليه بما يريد من رميه بالإلحاد والكفر ، حتى لا نمكنه من أن يظهر بين الناس بما يحب ، أو يجعل نفسه ضحية من ضحايا الرأى ، فليس أوجع فى نفسه من أن نأخذه فى رفق لنبين خطأه للناس ، ونأتيه بالدليل الذى يأخذ بناصيته الى الاعتراف بالخطأ ، أو الظهور بين الناس بمظهر المعاند المتعنت . فلا ينال منهم مايريد من الشهرة العلمية ، ولا يظفر منهم بعطف عليه أو تقدير لرأيه .

لقد رفع الأستاذ أحمد أمين تقريرا الى عميد كلية الآداب فى شأن تلك الرسالة ، وقد نشر هذا التقرير فى العدد «٧٤٤» من مجلة الرسالة.

الغراء. وساخذ صاحب تلك الرسالة بما جاء فى هذا التقرير ، لأن رسالته لاتزال مخطوطة ، فلم يمكنني الاطلاع عليها ، وقد صار ما جاء فى هذا التقرير حجة عليه ، لأنه سكت عنه ولم يرد ما نسب فيه إليه.

لقد ذكر الأستاذ أحمد أمين فى هذا التقرير أن صاحب تلك الرسالة يرى أن القصة فى القرآن لاتلتزم الصدق التاريخى، وإنما تتجه كما يتجه الأديب فى تصوير الحادثة تصويرا فنيا ، بدليل التناقض فى رواية الخبر الواحد ، مثل أن البشرى كانت لإبراهيم أو لامرأته. ثم رأى الأستاذ أحمد أمين أن مثل هذا وغيره فى تلك الرسالة مما يثير الجمهور ، وهذا قد يعد منه تهرباً عن إبداء الرأى الصريح فى تلك الرسالة ، وما كان لمثله من الجامعيين أن يجعل لثورة الجمهور وزنا فى الحكم على رسالة جامعية، لأن الجامعات يجب أن يكون الحكم فيها لخاصة الناس ، ولا يصح أن يقام فيها وزن لثورة غيرهم .

ولا شك أن دعوى التناقض فى البشرى بالغلام لإبراهيم وامرأته تدل على أن صاحب الرسالة لا يعرف تعريف التناقض ، ، ومن لا يعرف تعريف التناقض يكون فى طور الطفولة العلمية ، ولا يصح له أن يطفر الى الكتابة فى أمور لم يكن يكتب فيها إلا فحول العلماء، كابن جرير الطبرى ، وجار الله الزمخشرى . وفخر الدين الرازى .

فالبشرى بالغلام كانت لإبراهيم فى الآية «٥٣» من سورة الحجر . (فبشَّرناهُ بغلامٍ عليمٍ) وفى الآية «١٠١» من سورة الصافّات (فبشرناه بغلام حليم) وكانت لامرأته فى الآية «٧١» من سورة هود (وامرأتُهُ قائمةٌ فضحكتْ فبشرناها بإسحاق ومِنْ وراء إسحاق يعقوبَ) .

ومثل هذا ليس فى شىء من التناقض ، لأن التناقض اختلاف قضيتين فى الإيجاب والسلب اختلافا يلزم لذاته من صدق إحدى القضيتين كذب الأخرى . فلا بُد فيه من الاختلاف فى الإيجاب والسلب ، ولا بد فيه من الاتحاد فى الموضوع والمحمول وقيودهما ، وليس فى قصة البشرى بالغلام اختلاف فى الإيجاب والسلب ، بل جاءت البشرى به فى قضيتين موجبتين ، وليس فى القضيتين اتحاد فى قيود الموضوع والمحمول أيضاً ، ومثل هذا ضرورى أيضاً فى تحقق التناقض .

والحق أن القرآن فيه قصص نَصٌّ على وقوعها ، فيلزم فيها الصدق التاريخى ، وفيه قصص جرت مجرى الأمثال ، فيجوز فيها الوقوع وعدمه ، وليس فيه شىء من الأساطير التى ادعى صاحب تلك الرسالة أن فيه شيئاً منها . لأن الأساطير من الخرافات الوثنية التى تنسب إلى آلهتها وأبطالها ، فهى أخبار باطلة ، وأكاذيب ليس فيها فائدة .

فمن القصص التى نص القرآن على وقوعها قصة ولادة مريم ، فقد قصها القرآن فى سورة آل عمران ، ثم ختمها بهذه الآية « ٤٤ » (ذلِكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهمْ إذْ يلقونَ أقلامهمْ أيُّهمْ يكفلُ مريمَ وما كنتَ لديهمْ إذْ يختصمونَ) فنص فيها على وقوع هذه القصة ، فلا يصح أن يقال فيها إنه لا يلزم صدقها التاريخى .

ومن القصص التى تجرى مجرى الأمثال قوله تعالى فى الآية «٧٥» من سورة النحل (ضربَ اللهُ مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدرُ على شىءٍ ومَنْ رزقناهُ منا رزقاً حسناً فَهُوَ ينفقُ منه سرا وجهراً هلْ

يستوُون الحمدُ للهِ بَلْ أكثرهمْ لا يعلمونَ) فهـذا مثل لا يلزم وقوعه ، وإنما يساَق للعظة والعبرة ، وهو مثل صادق من هذه الناحية ، وهذا هو الفرق بينه وبين الأسطورة ، لأن الأسطورة خبر وثنى باطل ليس فيه فائدة .

وقد أتى صاحب تلك الرسالة من جهـة أنه لم يعرف الفرق بين القصة والمثل والأسطورة ، ولو أنه عرف الفرق بينهـا لم يذهب إلى أن القصة القرآنية لا يلزم فيها الصدق التاريخى .

وقد كان لهذا النقد أثره فى نفس صاحب رسالة « الفن القصصى فى القرآن » فأتى بها إلى لأطالعها وأبين له رأيي فيها ، فطالعتها وبينت له رأيي فى بعض مواضعها ، وقد طبعها أخيراً ، ولكننى لم أطالعها بعد.

هل فى القرآن اسلوب غير عربى ؟

قال الله تعالى فى أول سورة يوسف (ألر ، تلك آياتُ الكتابِ المبين ، إنَّا أنزلناهُ قرآناً عربيا لعلَّكم تعقلونَ) وقال تعالى فى الآية « ١٠٣ » من سورة النحل (ولقد نعلمُ أنهم يقولونَ إنما يعلِّمه بشر لسانُ الذى يلحدونَ اليه أعجمى وهذا لسانٌ عربى مبينٌ) إلى غير هذا من الآيات التى تفيد أن القرآن نزل كتابا عربيا فى لفظه وأسلوبه ، لأنه أنزل على رسول من العرب ، وكل رسول يبعث بلسان قومه ، كما قال تعالى فى الآية « ٤ » من سورة إبراهيم (وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه ليبينَ لهم فيضلُّ الله من يشاء ويهدى من يشاء وهوَ العزيزُ الحكيمُ) .

وقد اختلف علماؤنا قديما فى وقوع المعرَّب فى القرآن ، وهو ألفاظ مفردة منقولة من الفارسية والحبشية وغيرها ، مثل لفظ إستبرق ونحوه من الألفاظ المنقولة الى العربية من هذه اللغات ، فذهب بعض العلماء الى أنها ألفاظ عربية ، لأن القرآن لا يقع فيه إلا عربى ، وهم يرون أن ورود هذه الألفاظ فى غير العربية لا يدل على أنها غير عربية ، لأنه من باب توافق اللغات .

وذهب بعض العلماء الى أن هذه الألفاظ غير عربية ، والى أن ورودها فى القرآن لا يقدح فى كونه عربيا ، لأنها أولا ألفاظ نادرة لا تكاد تذكر فى القرآن ، ولأنها ثانيا لا ترجع الى الأسلوب ، والذى يؤثر فى عربية القرآن ما يرجع الى أسلوبه ولو كان نادراً .

ولكنى وجدت فى حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك فى النحو ما يفيد أنه قد يقع فى القرآن أسلوب غير عربى ، لأنه ذكر أن قوله تعالى فى الآية « ٧٨ » من سورة الأنعام (فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربّى) يجوز أن يكون وضع اسم الإشارة للمذكر فيه موضع اسم الإشارة للمؤنث لأن لغة إبراهيم لا تفرق بينهما ، فيكون أسلوبها فى هذا غير أسلوب اللغة العربية ، وبهذا يكون القرآن جرى فى ذلك على أسلوبها ، فأشار الى الشمس وهى مؤنثة باسم الإشارة الموضوع فى اللغة العربية للمذكر .

وإنى أرى أن مثل هذا لا يصح أن يقع فى القرآن ، لأن مخالفة الأسلوب العربى تدخل فى باب الخطأ ، والقرآن لا يصح أن يقع خطأ فيه ، ولا يصح أن يقاس على وقوع المعرَّب فى القرآن ، لأن وقوع المعرب لا يتعدى إيثار لفظة غير عربية لأنها أخف من العربية ، أو لأنه لا يوجد لها مرادف فى لغة العرب ، ومثل هذا لا يدخل فى باب الخطأ .

والحق أن تذكير اسم الإشارة فى الآية يجوز أن يكون لتذكير خبرها ، ويجوز أن يكون لأن الشمس كوكب من الكواكب فلفظها مؤنث ومعناها مذكر ، فذكر اسم الإشارة فى الآية مراعاة لتذكير معناها ، واذا صح هذا لم يجز أن نتكلف حمله على غير لغة العرب ؟

الرواية الإسلامية فى عدد أصحاب الكهف

ذكر الأستاذ زكى مبارك فى العدد (٣٩١) من مجلة الرسالة أنه بمراجعة التفاسير فى قوله تعالى فى الآية «٢٢» من سورة الكهف (سيقولونَ ثلاثةٌ رابعهم كلبهم ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبهم ويقولونَ سبعة وثامنهم كلبهم قل ربِّى أعلمُ بعدتهم ما يعلمهم إلا قليلٌ) يعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود، وأصحاب القول الثانى هم النصارى. وأصحاب القول الثالث هم المسلمون، فيكون عددهم عند اليهود اربعة بإضافة كلبهم اليهم، وعند النصارى ستة بإضافة كلبهم إليهم، وعند المسلمين ثمانية بإضافة كلبهم اليهم.

ولست أدرى علام استند الأستاذ زكى مبارك فى توزيع هذه الأقوال على اليهود والنصارى والمسلمين؟ لأن الآية ليس فيها شىء من هذا التوزيع، بل هى ظاهرة فى أن الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب لا للمسلمين، فهم الذين اختلفوا فى أن عددهم أربعة أو ستة أو ثمانية بإضافة كلبهم اليهم، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم فى الآية أن يماريهم فى خلافهم مراء ظاهراً، بأن يرجع العلم بتعيين عددهم على التحقيق إلى الله تعالى، لأنه إذا عين لهم عددا لم يسلموه له، ولم يقطع نزاعهم فيه، فلا يكون هناك أولى من أن يجيبهم بإرجاع العلم بعددهم إلى الله تعالى، وهو فى هذا يفيدهم بأن تعيين عددهم لا يدخل فى شأنه، ولا يهم فى المقصود من القصة، لأنها إنما تساق فى القرآن للعظة والعبرة، ولا تساق لفائدة تاريخية، كما هو الشأن فى كل ما جاء فى

القرآن من القصص ، والعظة حاصلة من هذه القصة بقطع النظر عن كون عدد أصحابها أربعة أو ستة أو ثمانية .

ولا أنكر أن بعض المفسرين يرجح أن أصحاب الكهف كانوا ثمانية بإضافة كلبهم اليهم ، وسنده فى هذا الترجيح زيادة الواو فى قوله (وثامنهم كلبهم) لأنه لم يقل قبلها (ورابعهم وسادسهم) ولكن هذه الواو إذا سلم أنها تدل على هذا فإنها تدل عليه عند الذين حكى الله تعالى هذا القول عنهم ، فهم الذين يزيدون هذه الواو فى تعيينهم لعددهم ، والله سبحانه وتعالى يحكى قولهم ، ولم يرد فى الآية ما يفيد ترجيحه لهذا القول ، وإنما ورد فيها نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تعيين عددهم ، وأمره بأن يخبرهم بأن علم عددهم من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وعلمه عنه قليل من خلقه ، والظاهر من هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم عددهم ، ولكنه لم يشأ أن يخبرهم به ، لأنهم يردونه عليه ويتمسكون بقولهم ، فلا يكون هناك فائدة من تعيينه لهم .

موسى عبرى أو مصرى

نقلت مجلة الرسالة فى العدد (٣٨٣) عن الأستاذ فرويد أنه يذهب إلى أن موسى عليه السلام كان مصرياً لا عبرياً ، ولا شك أن هذا يخالف ما اتفقت عليه الكتب الثلاثة المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن) وهى كتب لها قيمتها من الوجهة الدينية والتاريخية ، وكثير من المؤرخين يعتمد على التوراة فى التاريخ القديم ، ويعدها أهم مصدر لهذا التاريخ ، بل يعتمدون عليها فى تقسيم الأجناس البشرية إلى ساميين وحاميين وآريين ، وهو أساس علم الأنساب ، فلا يصح لمن لا يؤمن بهذه الكتب الثلاثة من الناحية الدينية أن يخالفها إلا بدليل قاطع ، لأن الدليل الظنى لا يقبل فى العلم ، فكيف إذا خالف نصاً دينياً له قيمته من الوجهة الدينية والوجهة التاريخية .

والأستاذ فرويد لم يعتمد فى تأييد مذهبه فى أن موسى كان مصريا لا عبريا إلا على أن كلمة موسى مصرية قديمة بمعنى عبد ، كما وردت فى كلمة (تحوتمس) بمعنى عبد تحوت ، وكان تحوت إلها من آلهة المصريين ، وإذا كانت كلمة موسى مصرية فإن صاحبها يكون مصريا .

ولا شك أن هذا الدليل لا يفيد أن موسى كان مصريا لا عبريا ، لأنه لا يلزم من كون اسم شخص مصريا أن يكون صاحبه مصريا ، لأن الأسماء كثيرا ما تتشابه فى اللغات ، ولا سيما أن موسى وقومه كانوا يعيشون فى عصره بين المصريين ، وكانوا بينهم قلة لا تذكر ، ولا شك أن القلة تقلد الكثرة فى أسمائها ، ولا يلزم من تقليدها لها فى ذلك أن تكون من صميمها ، ولو أن الأستاذ فرويد يعيش بيننا

فى مصر لشاهد ان فيها كثيرا من اليهود العبريين يعيشون بين المصريين كما كان يعيش أسلافهم بينهم ، ويقلدونهم فى أسمائهم العربية ، كما كان أسلافهم يقلدونهم فى أسمائهم المصرية القديمة ، واليهود مع هذا عبريون لا مصريون ، كما كان أسلافهم عبريين لا مصريين .

على أنه قد ورد فى اشتقاق كلمة موسى رأى آخر يخالف رأى الأستاذ فرويد ، وهو أنها اسم سريانى مركب من كلمتين (مو ، شا) ومو اسم للماء فى اللغة المصرية القديمة ، وشا بمعنى الشجر ، وقد سمى بهذا لأنه وجد حينما ألقته أمه فى البحر بين ماء وشجر ، ولا شك أن هذا الرأى صريح فى أن كلمة موسى ليست كلمة واحدة بمعنى عبد كما ذكر الأستاذ فرويد ، وقد قيل إن كلمة عبد يطلق عليها فى اللغة المصرية القديمة لفظ باك ، مثل (باك إن أمون) أى عبد الإله أمون ، وقد يجوز أن يدل عليها بكلمتين مترادفتين فى اللغة المصرية القديمة ، ولكن هذا أيضا له أثره فى ضعف ما ذهب إليه الأستاذ فرويد ، فلا يصح أن يؤثر على ماورد فى كتبنا السماوية .

وأد البنات عند العرب

قال الله تعالى في الآية «١٥١» من سورة الأنعام (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) وقال تعالى في الآية «٣١» من سورة الإسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) وقد وردت هاتان الآيتان فيما ورد من القرآن في وأد العرب لبناتهم، ولكنهما يمتازان على غيرهما بأنهما يبينان السبب الذى كان يدفعهم إلى وأد بناتهم ، وهو عجز فقرائهم عن الإنفاق عليهن ، وخشية أغنيائهم الفقر بهن ، وهناك سبب آخر لم يذكره القرآن في وأدهن ، وهو غيرتهم على أعراض البنات ، كما حصل في قصة قيس بن عاصم .

ولكن الأستاذ على عبدالواحد وافى يرى أن وأد البنات لم يكن يرجع إلى شيء من هذا ، وإنما كان يرجع إلى أن بعض العرب كانوا يعتقدون في البنات أنهن من خلق إله اليهود ، وكانوا ينظرون إليه نظرة كنظرتنا الآن إلى الشيطان ، وكانوا يعتقدون في الذكور أنهم من خلق آلهتهم ، ولهذا كانوا يعتقدون في البنات أنهن رجس يجب التخلص منه بالقتل ، وقد استدل على هذا بقوله تعالى في الآيات «٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩» من سورة النحل (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) فجعل الضمير

المجرور فى قوله (ولهم) عائدا إلى اسم الموصول فى قوله (لما لا يعلمون) وهو واقع على آلهتهم ، وجعل المراد من البنات إناث البشر .

والحقيقة أن الضمير فى قوله (ولهم ما يشتهون) عائد إليهم لا إلى آلهتهم ، وأن المراد من البنات الملائكة الذين كانوا يعتقدون فيهم أنهم بنات الله ، وقد ورد هذا صريحا فى آيات أخرى نزلت فيما نزلت فيه الآيات السابقة ، ومنها قوله تعالى فى الآيات «١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ » من سورة الزخرف (وجعلوا لهُ منْ عبادهِ جزءاً إن الانسان لكفورٌ مبين ، أم اتخذَ مما يخلقُ بنات وأصفاكم بالبنينَ ، وإذا بشّر أحدهمْ بما ضرب للرحمان مثلا ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ، وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمان إناثاً أشهدوا خلقهمْ ستكتبُ شهادتهمْ ويسألونَ) فالذين جعلوهم هنا جزء الله هم البنات فى الآيات السابقة من سورة النحل ، لأنهم جعلوهن أولادا لله والولد جزء من أبيه ، والمراد بهن الملائكة لا إناث البشر ، ويؤيد هذا قوله بعده (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً) ثم إنه قال هنا (وأصفاكم بالبنين) وهو نظير قوله فى آيات سورة النحل (ولهم مايشتهون) والضمير هنا عائد قطعا إليهم لا إلى آلهتهم ، فيكون ضمير (ولهم) عائد كذلك اليهم ، وبهذا ينهار الأساس الذى بنى عليه الأستاذ على وافى مذهبه فى وأد العرب البنات .

ومن الآيات الواردة أيضا فى ذلك قوله تعالى فى الآية «٤٠» من سورة الإسراء (أفأصفاكم ربكم بالبنينَ واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولونَ قولا عظيما) وهذا أصرح مما سبق فى أنهم يجعلون البنين لأنفسهم لا لآلهتهم ، وفى أن الإناث اللاتى يجعلوهن لله هن الملائكة لا إناث البشر .

وبهذا يثبت أن الاحتمال الذى ذكره الأستاذ على وافى فى قوله (ولهم ما يشتهون) من عود الضمير فيه إلى آلهتهم لا يوافق ما ورد فى نظير مما سبق ، إذ يعود الضمير فيه إليهم لا إلى آلهتهم ، وحينئذ لا يكفى ذلك الاحتمال البعيد فى إثبات ذلك المذهب الجديد فى وأد العرب البنات ، بل لا بُدّ له من سند آخر يؤيده ، كخبر من أخبار العرب فى جاهليتهم ، أو نحو هذا مما يثبت أن بعض العرب كانوا ينظرون فى جاهليتهم إلى إله اليهود كنظرتنا الآن إلى الشيطان ، وأنهم كانوا ينسبون إليه إناث البشر ، وينسبون الذكور إلى آلهتهم ، وأنهم كانوا يعتقد أن البنات رجس يجب التخلص منه بالقتل من أجل نسبتهن إلى إله اليهود ، فهذا كله لا يثبت بمثل ذلك الاحتمال البعيد ، بل يجب أن ترد به أخبار عن العرب فى جاهليتهم ، ولا يصح أن يختفى مثله بين أخبارهم إلى أن يأتى الأستاذ على وافى فيثبته بذلك الاحتمال البعيد .

على أن الآيات السابقة فى سورة الزخرف قد قال الله قبلها فى الآية « ٩ » (ولئن سألتهم من خلقَ السماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيزُ العليمُ) ثم ساق الآيات بعدها إلى أن ذكر تلك الآيات التى نسب إليهم فيها وأد البنات ، وبمقتضى هذا السياق يكون الذين إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض يقولون خلقهن العزيز العليم هم الذين كانوا يئدون بناتهم ، وحينئذ لا يكون نظرهم إلى الله كنظرهم إلى الشيطان ، بل يكون نظرهم إليه نظر تقديس وتعظيم.

وهذا كله إلى أنه لو كان بعض العرب يئدون بناتهم لمثل ما ذكره الأستاذ على وافى لكان وأدهن عندهم يرجع إلى عقيدة دينية ، فكانوا يئدون كل بناتهم ، ومثل هذا لا تفعله قبيلة من القبائل ، لأنه يؤدى

إلى انقراضها ، او إلى إضعافها على الأقل بين غيرها من القبائل العربية ، وقد كانت قبائل تعيش فى حروب دائمة لا تنقطع ، فكل قبيلة منها كانت فى حاجة إلى تكثير عدد أفرادها ، والبعد عما يقلل من عددهم ، فلم يكن الوأد على هذا يرجع إلى عقيدة دينية ، وإنما كان يرجع الى عوامل اجتماعية فى بعض أفراد من بعض القبائل ، كخوف الفقر من بعضهم ، وكعجز بعضهم عن نفقة البنات لفقره ، وكخوف بعضهم من عارهن أو سبيهن ، ومثل هذا لا يفعله فى العادة إلا شواذ منهم .

الفنون الجميلة فى القرآن

يخطىء من يظن أن دين الله تعالى زهد محض ، وتقشف بحت ، ورهبانية لا تعنى بزينة الدنيا وزخرفها ، وتصوف لا يرى إلا لبس الخشن من الثياب ، فلو صح هذا لم يكن دين الله تعالى عاما صالحاً لكل الناس على اختلاف طبائعهم ، وتباين مشاربهم ، بل يكون خاصاً بطائفة منهم دون غيرها من الطوائف ، وهى الطائفة التى تؤثر الزهد فى الدنيا ، وتقدم التقشف فيها على التنعم ، وليس كذلك دين الله تعالى ، بل هو عام لكل طوائف البشر ، ولا إصرَ فيه ولا حرج على طائفة منهم ، ولهذا جعل الزهد فى الدنيا مباحا لمن يريده من الناس ، ولم يجعله مندوبا أو فرضا عليهم ، وأحل التمتع بطيبات الدنيا لمن يريدها من الناس ، ولم يجعلها مكروهة أو محرمة عليهم ، حتى لا يكون فيه حرج على أحد فى هذه الحيـــاة ، ولا تضيق به طائفة من طوائف الناس ، وتسير به الحياة فى طريق صالح لا تفريط فيه ولا إفراط .

وقد جاء ذكر كثير من الفنون الجميلة فى القرآن الكريم ، كالبناء والنحت والتصوير والغناء وغيرها من الفنون الجميلة ، فلم يخرج فيها عما جاء به من رفع الإصرِ والحرج عن الناس ، ولم ينظر إليها بعين أهل الزهد والتقشف ، بل نظر إليها فى ذاتها ، حتى لا يغلو فى أمرها ، ولا يحيد عن الأساس الذى قام عليه تشريعه ، فذكر ازدهار بعض تلك الفنون فى بعض ما أنزل من الشرائع ، وأقام فيها من الملك ، وحكى هذا فى أسلوب ينوّه بعظمتها ، ويشيد بذكرها ، ويدل على مقدار ما وصلت إليه من الروعة ، وما بلغته من الجمال ، حتى كانت

آية فى الإبداع ، ومعجزة من معجزات الفن ، ومفخرة باقية على الدهر .

فذكر ماازدهر من فن الغناء فى عهد داود عليه السلام ، وقد بلغ هـذا النبي من حسن الغناء مابلغ ، حتى ضرب بحسن نغمته المثل ، فيقال ـ نغمة داود ـ مثلا فى طيب الصوت ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا فى الآية « ١٠ » من سورة سَبَأ (ولقد آتينا داودَ منَّا فضلا ياجبالُ أوِّبى معهُ والطير) فكان عليه السلام إذا قام فى محرابه يقرأ الزبور عكفت عليه الوحش والطير تصغى إليه ، وكان له مزامير أيضاً ضرب بها المثل ، فيقال ـ مزامير داود ـ لأنه فيما قبل كان له مزامير يزمر بها إذا قرأ الزبور ، وكان إذا زمر بها اجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير فأبكى من حوله ، وقال المبرد : مزامير آل داود كأنها ألحانهم وأغانيهم . وقال غيره : إن طيب صوته ونغمته شُبِّها بالمزامير ، ولا مزامير ولا معازف هناك .

ثم جاء سليمان عليه السلام بعد أبيه داود ، فذكر القرآن ماازدهر فى عهده من فنون البناء والنحت والتصوير ، إذ وصلت فيه إلى أوج عظمتها ، وأربت على ماوصلت إليه عند الأمم المتحضرة القديمة ، وقد ظهرت آثارها العظيمة فيما شيد سليمان من المساجد والقصور ، وأنشأ من المــــدن والحصون ، وإلى هذا يشير الله تعالى فى الآيتين «١٢و١٣» من سورة سبأ (ولسليمانَ الريحَ غدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ وأسلنا له عينَ القطرِ ومِنَ الجنِّ مَنْ يعملُ بين يديهِ بإذنِ ربِّهِ ومنْ يزغْ منهمْ عَنْ أمرِنا نذقْهُ مِنْ عذابِ السعيرِ ، يعملونَ لهُ مايشاءُ مِنْ محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسياتٍ اعملُوا آلَ داودَ شكرًا وقليلٌ مِنْ عبادىَ الشكورُ) .

وكان بيت المقدس اعظم ماتجلت فيه وآثار تلك الفن، إذتبارى فى زينته النابغون فيها، وأبدعوا فيما أقاموه من فنهم فى بنائه وتشييده، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ بناءه ، فلما آل ملكه إلى ابنه سليمان عليه السلام مضى فى إتمام ماابتدأه أبوه من ذلك البيت العظيم، وعمل على أن يكون فى عصره آية من آيات الفنون الجميلة ، ومعجزة من معجزات فنون البناء والنحت والتصوير ، فجمع له النابغين فى هذه الفنون من مملكته وما يجاورها من الممالك ، وعهد إلى كل طائفة منهم بما نبغت فيه منها ، وأحضر الرخام والبلور من أماكنهما ، وأمر ببناء المدينة أولا بالرخام والصفائح ، لتلائم ذلك البيت الذى يريد أن يبدع بناءه ، فيكون منها واسطة العقد ، وقلادة الجيد ، وقد جعلها اثنى عشر ربضاً ، وأنزل فى كل ربض سبطا من أسباط بنى إسرائيل .

ثم شرع فى تشييد ذلك البيت العظيم ، فأحضر الذهب والفضة واليواقيت والدُّرَّ الصافى والمسك والعنبر والطِّيب ، وأتى من ذلك بشىء كثير لايحصى ولا يعد ، وكان له سفن كثيرة تشق البحار شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، فأحضرت له ماأراد من ذلك كله، ثم أحضر المهرة من الصناع ، وأمرهم أن ينحتوا تلك الأحجار ويجعلوها ألواحا وأن يصلحوا الجواهر ، ويثقبوا اليواقت واللآلىء ، فبنى ذلك البيت بالرخام الأبيض والأخضر والأصفر ، وعَمَّده بأساطين البلور الصافى ، وسَقَّفه بأنواع الجواهر الثمينة ، وفَصَّص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج، فلم يكن على وجه الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك البيت ، حتى كان يضىء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر .

وقد زاد فى زينة ذلك البيت مانقش فيه من الصور الجميلة، وماأقيم

فيه من التماثيل البديعة ، وكان بعضها مصنوعاً من النحاس ، وبعضها مصنوعاً من الرخام ، وبعضها مصنوعاً من الزجاج ، وكان منها مايمثل صور الملائكة ، ومنها مايمثل صور الأنبيــــاء ، ومنها مايمثل صور الصالحين ، ومنها مايمثــل صور السباع والطيور ونحوها ، وكان من أبدع تلك التماثيل أسدان كانا موضوعين تحت كرسى سليمان عليه السلام، ونسران كانا موضوعين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما ، وإذا جلس على كرسيه أظله النسران بأجنحتهما .

ومن أبدع مابناه سليمان من القصور الصرح الذى شيده لبلقيس ملكة سبأ ، وقد نَــوَّه القرآن بشأنه فى الآية « ٤٤ » من سورة النمل (قيلَ لها ادخلى الصرحَ فلمَّا رأتْــهُ حسبتهُ لُجَّــة وكشفتْ عــنْ ساقيها قالَ إنَّــهُ صرحٌ مُمَــرَّدٌ مِنْ قواريرَ قالتْ ربِّ إنِّى ظلمتُ نفسى وأسلمتُ مع سليمانَ لِلهِ ربِّ العالَمينَ) .

فهذا الصرح كان آية أيضاً من آيات الفنون الجميلة ، وفيه أكبر دلالة على أنها بلغت فى عهد سليمان مبلغاً عظيما ، فقد أبدع فيه سليمان ليظهر لبلقيس عظمة ملكه ، ويطلعها على ماأولاه الله تعالى من نعمه، فأقامه من الزجاج الذى يضاهى المــاء فى لونه ، ثم أجرى الماء تحته ، وألقى فيه من السمك والضفادع وغيرها من أنواع الحيوان التى تسكن الماء ، ثم وضع سريره فى صدر المجلس وجلس عليه، فلما أقبلت بلقيس لتدخل عليه فى ذلك الصرح ، حسبته لُجَّــة أى ماء عظيما ، فكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان فى صدر المجلس ، فأخبرها بأنه صرح ممرد من قوارير ، فعادت فسترت ساقيها ،وسارت حتى وصلت إليه ، فعجبت من ذلك الصرح كل العجب ، وأدركت فضل ماحبا الله سليمان من الملك ، فآمنت بأن ملكه من الله تعالى ، وأسلمت لله رب العالمين.

وكان عثمان بن عفان أول من عنى بتلك الفنون في الإسلام ، فاهتم في خلافته بتشييد مسجد المدينة ، فهدمه وبناه بالجص والحجارة، وأحضر له مهرة البنائين من مصر وغيرها من المملكة الإسلامية التي اتسعت في عهده ، وصارت من العظمة بحيث لا يليق بها أن يبقى مسجد عاصمتها على ما كان عليه قبله ، وقد أتى بعده الوليد بن عبد الملك فأرسل إلى عمر بن عبد العزيز وكان عاملا له على المدينة ، فأمره أن يزيد في ذلك المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً . وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى جدرانه بالفسيفساء، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر .

وقد أباح عثمان بن عفان لأهل المدينة أن يتوسعوا في البناء ، فشيدوا فيها القصور ، وأبدعوا في بنائها وتشييدها ، وكان هذا كله من ضمن ما أخذه عليه المتنطعون في الدين، وأرادوا به خلعه من الخلافة، وقد نقل العتبي في كتاب اليميني عن رسالة البُسْتي في الترجيح بين الصحابة أن عثمان كان أول من بدل إمارة المسلمين من زي النسك إلى زينة الملك، فعد هذا من مثالبه ، مع أنه مفخرة من مفاخره ، لأن دولة المسلمين لا يصح أن تبقى دائماً على مظاهر الخشونة والبداوة ، بل يجب أن تظهر عليها آثار الحضارة إذا أقبلت الدنيا عليها ، لأن هذا يكون أدعى إلى هيبتها بين الدول، وهو من حسن السياسة التي يدعو الدين والعقل إليها

وما كان للديانات السماوية أن تقف من الفنون الجميلة غير هذا الموقف ، لأن لها فائدتها من تهذيب الطباع ، وإصلاح الأذواق ، وترقيق النفوس ، فلا يمكن أن ينكر فضلها دين من الأديان، ولا يصح أن تنكر فائدتها شريعة من الشرائع .

تصحيح أسماء السور
فى مصحف أبى بن كعب

جاء ترتيب مصحف أبَيّ بن كعب الأنصارى فى ثلاث كتب: أولها كتاب الفهرست لابن النديم، وثانيها فى كتاب الإتقان للسيوطى، وثالثها فى كتاب تاريخ القرآن لأبى عبدالله الزنجانى من علماء الشيعة فى عصرنا، وقد طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر فى سنة ١٣٥٤ هـ، وقد بدأه الأستاذ أحمد أمين بمقدمة تنوّه بشأنه، وتشيد بفضل مؤلفه، مع أنه محشو بأغلاط كثيرة تدل على أنه ينقصه كثير من التحقيق، وكان على الأستاذ أحمد أمين أن يتنبه إلى هذه الأغلاط، لأنه أقدر عليها من صاحب الكتاب، بفضل تربيته الدينية العربية، أما صاحب الكتاب فلغته فارسية، وقد يخفى عليه من هذا ما لا يخفى على الأستاذ أحمد أمين، ومن أهم هذه الأغلاط ما جاء فى عدد سور القرآن وأسمائها وترتيبها فى مصحف أبَيّ بن كعب، فهى أغلاط لها خطورة دينية كبيرة، لأنها تفيد أن فى هذا المصحف سورا لم ترد فى مصحف عثمان، وأن فى مصحف عثمان سورا لم ترد فى هذا المصحف، ومثل هذا مما يتخذه أعداء القرآن للطعن عليه بأن فيه تحريفا بالزيادة والنقصان، فمن الواجب أن تبين تلك الأغلاط التى وقعت فى ترتيب مصحف أبى بن كعب فى كتاب تاريخ القرآن، ليتبين للناس أمرها، ويعرفوا أنه لا خلاف يذكر بين مصحف عثمان ومصحف أبى بن كعب فى عدد سور وأسمائها.

وقد وقعت هذه الأغلاط أولا فى كتاب الفهرست ، لأن فيه كثيراً من النقص والتحريف ، وكان لترتيب مصحف أبي بن كعب فيه حظ كبير منهما ، أما كتاب الإتقان فليس فيه إلا قليل من النقص والتحريف فى ترتيب ذلك المصحف ، وقد اعتمد كتاب تاريخ القرآن فى ترتيب ذلك المصحف على كتاب الفهرست ، ولم يطلع صاحبه على ترتيبه فى كتاب الإتقان ، فوقع فيما وقع فيه من النقص والتحريف ، ولم يهتد إلى الصواب فى أمره ، فازداد اضطرابا فى ترتيب ذلك المصحف ، وأربى فيه على كتاب الفهرست تحريفا ونقصا ، ولهذا يجب أولا ذكر ترتيب ذلك المصحف فى كتاب الفهرست ، ليتبع بذكر ترتيبه فى كتاب تاريخ القرآن ، ثم بذكر ترتيبه فى كتاب الإتقان .

وهذا ماذكره كتاب الفهرست فى ترتيب ذلك المصحف : « قال الفضل بن شاذانَ : أخبرنا الثقة من أصحابنا ، قال : كان تأليف السور فى قراءة أبي بن كعب بالبصرة فى قرية يقال لها قرية الأنصار ، على رأس فرسخين ، عند محمد بن عبد الملك الأنصارى ، أخرج إلينا مصحفا وقال : هو مصحف أبي بن كعب ، رويناه عن آبائنا . فنظرت فيهِ فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل[1] وعدد الآى ، فأوله فاتحة الكتاب . البقرة . النساء . آل عمران . الأنعام . الأعراف . المائدة . الذى التبسته وهى يونس . الأنفال . التوبة . هود . مريم . الشعراء . الحج . يوسف . الكهف . النحل . الأحزاب . بنى إسرائيل . الزمر . حم تنزيل . طه . الأنبياء . النور . المؤمنون . حم المؤمن . الرعد . طسم القصص . طس سليمان . الصافات . داود سورة ص . يس . أصحاب الحجر . حم عسق . الروم . الزخرف . حم السجدة .

(١) كلمة الرسل تحريف لم أهتد إلى أصله .

سورة ابراهيم . الملائكة . الفتح . محمد . الحديد . الظهار . تبارك الفرقان . ألم تنزيل . نوح . الأحقاف . ق . الرحمان . الواقعة . الجن . النجم . ن . الحاقة . الحشر . الممتحنة . المرسلات . عم يتساءلون . الإنسان . لا أقسم . كورت.النازعات . عبس.المطففين . إذا السماء انشقت . التين . إقرأ باسم ربك . الحجرات . المنافقون . الجمعة . النبي . الفجر . الملك . الليل إذا يغشى . إذا السماء انفطرت . الشمس وضحاها . السماء ذات البروج . الطارق . سبح اسم ربك الأعلى . الغاشية . عبس وهى أهل الكتاب لم يكن أول ما كان الذين كفروا . الصف . الضحى . ألم نشرح لك . القارعة . التكاثر . الخلع ثلاث آيات . الجيد ست آيات اللهم إياك نعبد وآخرها بالكفار ملحق . اللمز . إذا زلزلت . العاديات . أصحاب الفيل . التين . الكوثر . القدر . الكافرون . النصر . أبي لهب . قريش . الصمد . الفلق . الناس . فذلك مائة وست عشرة سورة » .

والنقط التى فصلت بها أسماء السور فى هذا المصحف من وضعي ، لا من وضع صاحب الفهرست ، لأنه أوردها متلاصقة من غير أن يفصل بينها بشيء ، ولكنها مع هذا لا تصل إلى العدد الذى ذكره ، وهو مائة وست عشرة سورة ، لأنه لا يتجاوز على هذه الفواصل التى وضعتها اثنتين ومائة سورة ، على ما فيه من تكرار بعض السور ، كما سأبينه بعد .

والتحريف الأول فى هذا الترتيب يقع فى قوله (الذى التبسنه وهى يونس) والتحريف الثانى فى قوله (حم تنزيل) لأنه يصدق على أربع سور (حم المؤمن وحم السجدة والأحقاف والجاثية) وقد ذكر الثلاث الأولى بعده ، فيتعين أن يكون المراد منه الجاثية ، ولكن

دلالته عليها فيها نقص ظاهر ، فلابد أن يكون فيه تحريف أدى إلى هذا النقص ، والتحريف الثالث وقع فى قوله (داود سورة ص) ولعل أصله (ص داود) على قياس قوله (طس سليمان) والتحريف الرابع وقع فى قوله (عبس وهى أهل الكتاب لم يكن أول ما كان الذين كفروا) فلا شك أنه يريد به سورة لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ، وتحريفه واضطرابه من الظهور بمكان ، والتحريف الخامس وقع فى قوله (الجيد ست آيات) وهى الحفد لا الجيد ، والتحريف السادس وقع فى قوله (اللمز) وهى اللمزة لا اللمز ، لأنها وردت كذلك فى قوله تعالى (وَيْلٌ لكل هُمَزَةٍ لمزَةٍ) والتحريف السابع فى قوله (لا أقسم) لأنه يصدق على سورتين (القيامة والبلد) لا على سورة واحدة ، والتحريف الثامن فى قوله (النبى) لأنه يصدق على سورتين (الطلاق والتحريم) لا على سورة واحدة .

فأما سورة بنى إسرائيل فى ذلك الترتيب فهى سورة الإسراء . وسورة طس سليمان هى سورة النمل . وسورة أصحاب الحجر هى سورة الحجر . وسورة الملائكة هى سورة فاطر . وسورة الظهار هى سورة المجادلة . وسورة أبى لهب هى سورة المسد . وسورة الصمد هى سورة الإخلاص . وأما سورتا الخلع والحفد فسورتان زيدتا فى مصحف أبى بن كعب على مصحف عثمان . وسيأتى بيانهما . وأما سورة التين الثانية فهى سورة التين الأولى . ولعلها محرفة عن سورة أخرى .

وهذا هو ترتيب كتاب تاريخ القرآن لمصحف أبى بن كعب :

سور مصحف أبي بن كعب :

(١) فاتحة الكتاب
(٢) البقرة
(٣) النساء
(٤) آل عمران
(٥) الأنعام
(٦) الأعراف
(٧) المائدة الذى التبسته يونس
(٨) الأنفال
(٩) التوبة
(١٠) هود
(١١) مريم
(١٢) الشعراء
(١٣) الحج
(١٤) يوسف
(١٥) الكهف
(١٦) النحل
(١٧) الأحزاب
(١٨) بنى إسرائيل
(١٩) الزمر
(٢٠) حم تنزيل
(٢١) طه
(٢٢) الأنبياء
(٢٣) النور
(٢٤) المؤمنون
(٢٥) حم المؤمن
(٢٦) الرعد
(٢٧) طسم
(٢٨) القصص
(٢٩) طس
(٣٠) سليمان
(٣١) الصافات
(٣٢) داود
(٣٣) ص
(٣٤) يس
(٣٥) أصحاب الحجر
(٣٦) حم عسق
(٣٧) الروم
(٣٨) الزخرف
(٣٩) حم السجدة
(٤٠) ابراهيم
(٤١) الملائكة
(٤٢) الفتح
(٤٣) محمد
(٤٤) الحديد
(٤٥) الظهار
(٤٦) تبارك
(٤٧) الفرقان
(٤٨) ألم تنزيل
(٤٩) نوح
(٥٠) الأحقاف
(٥١) ق
(٥٢) الرحمان
(٥٣) الواقعة
(٥٤) الجن
(٥٥) النجم
(٥٦) ن
(٥٧) الحاقة
(٥٨) الحشر
(٥٩) الممتحنة
(٦٠) المرسلات
(٦١) عم يتساءلون
(٦٢) الإنسان
(٦٣) لا أقسم
(٦٤) كورت

(٦٥) النازعات	(٧٩) الشمس وضحاها	واخـــزها
(٦٦) عبس	(٨٠) السمـاء ذات	بالـكفار
(٦٧) المطففين	البروج	ملحق اللمز
(٦٨) إذا السمـــاء	(٨١) الطارق	(٩٣) إذا زلزلت
انشقت	(٨٢) سبح اسم ربك	(٩٤) العاديات
(٩٦) التين	الأعلى	(٦٩) أصحاب الفيل
(٧٠) إقرأ بسم ربك	(٨٣) الغاشية	(٩٥) التين
(٧١) الحجرات	(٨٤) عبس	(٩٧) الـكوثر
(٧٢) االمنافقون	(٨٥) الصف	(٩٨) القدر
(٧٣) الجمة	(٨٦) الضحى	(٩٩) الكافرون
(٧٤) النبي	(٨٧) ألم نشرح	(١٠٠) النصر
(٧٥) الفجر	(٨٨) القارعة	(١٠١) أبي لهب
(٧٦) الملك	(٨٩) التكاثر	(١٠٢) قريش
(٧٧) الليل إذا يغشى	(٩٠) الخلع	(١٠٣) الصمد
(٧٨) إذا السماء	(٩١) الجيد	(١٠٤) الفلق
انفطرت	(٩٢) اللهم إياك نعبد	(١٠٥) الناس

والمتأمل فى الترتيب يرى أنه منقول بلفظه من ترتيب صاحب الفهرست ، ولـكنه تـصَرَّف فيه بما زاده تحريفاً على تحريفه ، وأضاف إليه اضطراباً على اضطرابه ، فقدخرج من التحريف الأول السـابق بإسقاط سورة يونس من عدد سور القرآن ، وخرج من التحريف الثانى بجعل (حم تنزيل) سورة لايدرى مدلولها من السور الأربع التى تصدق عليها ، وخرج من التحريف الثالث بجعل (داود) سورة و (ص) اسما لسورة أخرى ، فزاد فى سور القرآن سووة سماها

سورة داود . وليس فى القرآن سورة بهذا الاسم ، وإنما ذلك سورة واحدة هى (ص داود) فحرفت ذلك التحريف ، وخرج من التحريف الرابع بزيادة سورة عبس ثانية ، مع أنه ليس فى القرآن إلا سورة واحدة بهذا الاسم ، وخرج من التحريف الخامس والسادس بتركهما على حالهما وإضافة سورة اللمز (اللمزة) إليهما ، فأسقط بهذا سورة معروفة من سور القرآن ، وهى المعروفة فى مصحف عثمان باسم سورة الهمزة ، وخرج من التحريف السابع بجعل (لا أقسم) سورة لايدرى مدلولها من السورتين اللتين تصدق عليهما ، وكذلك فعل فى التحريف الثامن .

وقد أضاف إلى هذ أنه جعل (طسم القصص) اسما لسورتين ، مع أنه اسم لسورة واحدة ، وكذلك فعل فى (طس سليمان) وفى (تبارك الفرقان) ثم عد (اللهم إياك نعبد الخ) سورة أخرى غير سورة الجيد (الحفد) وهى هى بعينها كما سيأتى ، وقد كان هذا سببا فى زيادة هذا الترتيب ثلاث سور على الترتيب الذى سبق فى كتاب الفهرست ، وكلاهما لا يصل إلى العدد الذى ذكره صاحب الفهرست لسور مصحف أبى بن كعب ، وهو مائة وست عشرة سورة .

وهذا هو ترتيب كتاب الإتقان لمصحف أبى بن كعب :

« فائدة — قال ابن أشتة فى كتاب المصاحف : أنبأنا محمد بن يعقوب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو جعفر الكوفى ، قال : هذا تأليف مصحف أبى — الحمد . ثم البقرة . ثم النساء . ثم آل عمران . ثم الأنعام . ثم الأعراف . ثم المائدة . ثم يونس . ثم الأنفال . ثم براءة . ثم هود . ثم مريم . ثم الشعراء . ثم الحج . ثم يوسف . ثم الكهف . ثم النحل . ثم الأحزاب . ثم بنى إسرائيل . ثم الزمر أولها

حم[1] ثم طه . ثم الأنبياء . ثم النور . ثم المؤمنون . ثم سبأ . ثم العنكبوت . ثم المؤمن . ثم الرعد . ثم القصص . ثم النمل . ثم الصافات . ثم ص . ثم يس . ثم الحجر . ثم حم عسق . ثم الروم . ثم الحديد . ثم الفتح . ثم القتال . ثم الظهار . ثم تبارك الملك . ثم السجدة . ثم إنا أرسلنا نوحا . ثم الأحقاف . ثم ق . ثم الرحمان . ثم الواقعة . ثم الجن . ثم النجم . ثم سال سائل . ثم المزمل . ثم المدثر . ثم اقتربت . ثم حم[2] . ثم الدخان . ثم لقمان . ثم حم الجاثية . ثم الطور . ثم الذاريات . ثم ن . ثم الحاقة . ثم الحشر . ثم الممتحنة . ثم المرسلات . ثم عم يتساءلون . ثم لا أقسم بيوم القيامة . ثم إذا الشمس كورت . ثم ياأيها النبي إذا طلقتم . ثم النازعات . ثم التغابن . ثم عبس . ثم المطففين . ثم إذا السماء انشقت . ثم والتين والزيتون . ثم اقرأ باسم ربك . ثم الحجرات . ثم المنافقون . ثم الجمعة . ثم لم تحرم . ثم الفجر . ثم لا أقسم بهذا البلد . ثم والليل . ثم إذا السماء انفطرت . ثم والشمس وضحاها . ثم والسماء والطارق . ثم سبح اسم ربك . ثم الغاشية . ثم الصف . ثم سورة أهل الكتاب وهى لم يكن . ثم الضحى . ثم ألم نشرح . ثم القارعة . ثم التكاثر . ثم العصر . ثم سورة الخلع . ثم سورة الحفد . ثم ويل لكل همزة . ثم إذا زلزلت . ثم العاديات . ثم الفيل . ثم لإيلاف قريش . ثم أرأيت . ثم إنا أعطيناك . ثم القدر . ثم الكافرون . ثم إذا جاء نصر الله . ثم تبت ، ثم الصمد . ثم الفلق . ثم الناس » .

---

(١) فى هذا تحريف سيأتى بيانه .

(٢) يريد حم الزخرف لأنه لم يبق غيرها، وقد ذكرت فى ترتيب كتاب الفهرست بعد سورة الروم .

وعدد سور هذا الترتيب عشر ومائة سورة ، فهو ينقص ست سور عن عدد سور مصحف أبي بن كعب ، وهي سورة (حم فصلت) ولعلها سقطت بالتحريف في قوله (ثم الزمر أولها حم) لأن الزمر أولها تنزيل الكتاب لاحم ، ونص كتاب الفهرست (الزمر ، حم تنزيل) ثم سورة إبراهيم ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد (حم السجدة) ثم سورة الفرقان ، ولعلها سقطت في قوله (تبارك الملك) بسقوط حرف العطف ، والأصل تبارك والملك ، وسورة الفرقان مذكورة في كتاب الفهرست باسم (تبارك الفرقان) ثم سورة الملائكة ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد سورة إبراهيم ، ثم سورة الإنسان ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد سورة عم يتساءلون ، ثم سورة والسماء ذات البروج ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد سورة والشمس وضحاها ، وهذه هي السور الست الساقطة في ترتيب كتاب الإتقان لمصحف أبي (حم فصلت ، وإبراهيم ، والفرقان ، والملائكة ، والإنسان ، والسماء ذات البروج) وهي مذكورة في ترتيب كتاب الفهرست لهذا المصحف ، كما أن كل السور الساقطة في ترتيب كتاب الفهرست له مذكورة في ترتيب كتاب الإتقان له ، وبهذا تكون سور هذا المصحف هي بعينها سور مصحف عثمان ، ولا يكون هناك خلاف بينهما إلا في تقديم بعض السور على بعض ، وفي أسماء بعض السور . وفي زيادة سورتي الخلع والحفد في مصحف أبي . وقد كان ترتيب السور بالتقديم والتأخير يرجع إلى اجتهاد الصحابة . ولهذا اختلفوا في هذا الترتيب . وهذا لا يؤثر بشيء في نص القرآن . وكذلك الاختلاف في تسمية بعض السور . لأن الذي يضر اختلاف المسمى لا اختلاف الاسم . فلم يبق إلا زيادة سورتي الخلع والحفد في مصحف أبي .

وسورتا الخلع والحفد هما قنوت المالكية فى صلاة الصبح. وقنوت الحنفيـــة فى صلاة الوتر، وقنوت المالكية «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونتوب إليك ونؤمن بك، ونتوكل عليك، ونثنى عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، نخنع لك ونخلع، ونترك من يكفرك اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق».

وقنوت الحنفية «اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك ونتوب إليك، ونؤمن بك ونتوكل عليك. ونثنى عليك الخير كله. نشكرك ولا نكفرك. ونخلع ونترك من يفجرك. اللهم إياك نعبد. ولك نصلى ونسجد. وإليك نسعى ونحفد. نرجو رحمتك. ونخشى عذابك، إن عذابك الجدّ بالكفار ملحق».

ولاشك أن هذا يكاد يكون قنوتاً واحداً، فكان حقه أن يعد سورة واحـــدة لاسورتين، وإنما عده بعضهم قرآنا لما أخرجه البيهقى عن عمر بن الخطاب أنه قنت بعد الركوع فقال «بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم إنا نستعينك إلخ» وفيه بعض مخالفة للصورتين السابقتين. فقال ابن جريج: حكمة البسملة أنهما سورتان فى مصحف بعض الصحابة. ويمكن أن يرد عليه بأن البسملة مطلوبة فى كل أمر ذى بال ولو لم يكن قرآناً. على أن هذا ليس فى شىء من أسلوب القرآن. ويمكن أن يكون مكتوبا فى مصحف أبى على أنه قنوت لا قرآن. لأنه يتلى فى الصلاة كما يتلى القرآن، فألحق بهذا المصحف ليحفظ كما يحفظ، ولعله كان فى آخره فأدرجه بعض الناس فى وسطه، ويمكن أيضا أن يكون قد اشتبه أمره على أبى، وقد مات فى خلافة عمر على الأرجح، فلم يدرك إجماع الناس على مصحف عثمان بعد خلافة عمر، ولو أنه ادرك إجماعهم لزال اشتباهه فى ذلك. ورضى من مصحف عثمان مارضيه جمهور المسلمين بعده.

فى علم التوحيد

الاسلام وحرية البحث

بعث الله تعالى الرسل ليدعوا الناس إلى الإيمان به . وقد دعوا الناس إلى الإيمان بطريقين :

أولهما : طريق المعجزات الخارقة للعادة ، لأنها تدل على وجود إله قادر تخضع له نواميس الكون ، وتسير على وفق قدرته ومشيئته ، فتارة تأخذهم الى الإيمان به أخذا ، وتبهرهم بما فيها من خوارق العادات ، وعجائب القدرة الإلهية ، وتارة يمارون فيها ، وينسبونها إلى الشعوذة والسحر ، فيأخذهم الله بعنادهم ، ويهلكهم بتماديهم فى كفرهم .

وثانيهما : طريق البحث والنظر وهو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى الآية « ١٦٤ » من سورة البقرة (إنَّ فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البَحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وفى قوله تعالى فى الآية « ١٩٠ » من سورة آل عمران (إنَّ فى خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليلِ والنهار لآيات لأولى الألبَاب) وفى قوله تعالى فى الآية « ٤ » من سورة الرعد (وفى الأرضِ قطَع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيلٌ صنوانٌ وغيرَ صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعضَ فى الأكل إنَّ فى ذَلك لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ) وفى قوله تعالى فى الآيات « ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ » من سورة الغاشية

(أفلا ينظرونَ إلى الإبل كيف خُلقت ، وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نُصبت ، وإلى الأرض كيف سُطحت) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تحث على النظر فى ملكوت السماوات والأرض ، ليؤدى إلى الإيمان بالله عن طريق الاقتناع العقلى ، ويصل الايمان فيه إلى القلب بطريق البحث والنظر ، فلا يأخذ الله الناس فيه بما يأخذهم به فى الطريق الأول ، بل يمهلهم فيه حتى يجىء إيمانهم عن اقتناع ، وتطمئن قلوبهم به بعد إمعان البحث ، وتقليب وجوه النظر .

وهذا الطريق هو الذى سلكه إبراهيم عليه السلام فى الإيمان بالله تعالى ، كما بينه القرآن الكريم فى الآيات — ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ — من سورة الأنعام (وكذلك نرى ابراهيمَ ملكوتَ السماوات والأرض وليكونَ من الموقنين ، فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قالَ لا أحب الآفلينَ ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبرُ فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجَّهتُ وجهىَ للذى فطر السماوات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين) .

فهذا استدلال بطريق النظر على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وقد جاء قوله تعالى (فلما أفل قال لاأحب الآفلين) على هيئة الشكل الأول من القياس الحملى الاقترانى ، بعد أن حذفت مقدمته الأولى اكتفاء بلازم الثانية ، وهو (لاأحب الآفلين) و قد نَوَّهَ الله تعالى بشأن هذا الطريق الذى سلكه إبراهيم عليه السلام ، ورفع به شأنه على قومه وعلى سائر الأنبياء قبله ، وجعله خليله من بينهم ، واصطفى

ذريته على غيرهم ، وكان لهذا الطريق أثره فى إيمانهم به ، فلم يثبت الايمان به فى أمة من الأمم كما ثبت فيهم ، لأن الايمان الذى يحدث بطريق النظر والبحث يكون أرفع شأناً ، وأثبت أركانا ، وأقوى يقينا ، وقد ورد هذا التنويه بعد تلك الآيات السابقة ، فقال تعالى فى الآيات « ٨٢ : ٩٠ » من تلك السورة (وتلك حُجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفعُ درجات من نشاءُ إنّ ربك حكيمٌ عليمٌ ، ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كلا هدينا ونوحا هدينا من قبلُ ومن ذريته داودَ وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارونَ وكذلك نجزى المحسنينَ ، وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس كلٌ من الصالحين ، وإسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ولوطاً وكلا فَضّلنا على العالمينَ ، ومن آبائهمْ وذرياتهمْ وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ، ذلك هُدَى الله يهدى به منْ يشاء مِنْ عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملونَ ، اولئك الذين آتيناهمُ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء فقدْ وكّلنا بها قوما ليسُوا بها بكافرينَ ، أولئك الذين هَدَى اللهَ فبِهداهم اقتده قل لا أسألكمْ عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمينَ) .

ومن ينظر فى هذه الآيات يجد أن الله بعد أنْ نَوّهَ بتلك الحجة التى آتاها إبراهيم أمر نبيه محمداً أن يتخذها طريقا له ، فيسلك فى الايمان طريق النظر الذى سلكه إبراهيم ، ويأمر أتباعه بأن يتخذوه طريقاً لهم ، لأنه هو الطريق الذى هدى إليه العلم ، وجاءت به الحكمة المقتبسة من الوحى ، فمن سلكه كان من العلماء الصالحين ، واندرج فى سلك الحكماء المهتدين ، وازداد بعلمه يقينا ، واستمد من حكمته اطمئنانا ، فيثبت إيمانه ثبوت الجبال . ولا يتزعزع كما يتزعزع الإيمان عن طريق

المعجزات الحسية ، لأن الإيمان عن طريقها لا يبقى على حاله بعد انقطاعها ، بل يأخذ فى الضعف كلما بعد العهد بها ، وهو إلى هذا مما يستوى فيه العالم والجاهل ، وليس له سند باق من العلم ، فلا يثبت على الشكوك والأوهام التى تقوم بالنفس بعد انقطاع المعجزة .

ولهذا لم يرض الله للمسلمين أن يحصل إيمانهم عن طريق تلك المعجزات ، فلم يأتهم بها كما أتى من قبلهم من الأمم ، ولم يجب المشركين إلى ما كانوا يقترحونه منها ، بل كان يوبخهم على طلبها ، ويبين لهم أن أغلب الأمم قبلهم لم يؤمن بها ، فكانت سبباً فى عذابهم وهلاكهم ، كما قال تعالى فى الآية « ٥٩ » من سورة الإسراء (وما منعنا أنْ نرسلَ بالآياتِ إلاّ أنْ كذَّبَ بها الأولونَ وآتينا ثمود الناقةَ مبصرةً فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً) وفى الآية « ٧ » من سورة الرعد (ويقولُ الذينَ كفروا لَوْلاَ أنزل عليه آيةٌ من ربه قُلْ إنّ الله يضلُّ من يشاءُ ويهدى إليه من أنابَ) .

على أن الرسل السابقين كانوا يسلكون فى الدعوة إلى الإيمان بالله طريق النظر قبل أن يسلكوا إليه طريق المعجزات ، فلا يأتون أقوامهم بها إلا بعد أن يأخذوهم بالأدلة النظرية ، ويقيموا لهم البراهين على وجوده تعالى ، فإذا لم يفد هذا معهم وتمادوا فى التكذيب بعد قيام الحجة عليهم أتاهم الله بتلك المعجزات ، ليأخذهم بها بعد أن لم تفد فيهم تلك الأدلة ، وهذا كما فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، فإن الله تعالى لما أرسله إليه هو وأخوه هارون لم يبدأه بالمعجزات الحسية التى أرسل بها اليه ، بل سلك معه أولا طريق النظر ، ودعاه إلى الإيمان بالدليل ، كما يدعو غيره من الناس ، ممن لم يؤيد بالوحى والمعجزات ، فقد ذكر الله فى الآية « ٤٩ » من سورة طه أن

فرعون سأل موسى عن ربه (قال فمن ربكما يا موسى) فأجابه عن هذا فى الآيات بعدها بذكر الأدلة النظرية التى تثبت وجوده ، فقال (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) ولكن فرعون كذب بعد هذا وعاند ، فأخذه بمعجزة العصا وغيرها من معجزاته الحسية .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان بطريق النظر هو الأصل ، وأن الرسل لم يعدلوا عنه الى الإيمان عن طريق المعجزة الحسية إلا بعد أن تمادى أقوامهم فى العناد ، وحال فرط جهلهم بينهم وبين الإيمان بالدليل النظرى ، لأنهم كانوا من الجبابرة العتاة الذين لا يؤمنون إلا بالقوة الخارقة ، والقدرة التى تعجز أمامها قدرتهم ، فإذا لم يؤمنوا بعد ذلك حق عليهم عذاب الدنيا والآخرة ، كما حكى الله تعالى عن نوح وقومه فى سورة نوح (قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم

الأرضَ بساطا ، لتسلكوا منها سُبُلا فجاجا ، قال نوح ربِّ إنهم عَصَوْنى واتبعوا من لم يَزِدْهُ مالُه وولدُه إلا خسارا ، ومكروا مكرا كُبَّارًا ، وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سُواعا ولا يغُوث و يعوق و نَسْرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ، مِمَّا خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم منْ دون الله أنصارا) الآيات — ٥ : ٢٥ .

وقد أطلق الله تعالى لعباده حرية البحث حين اختار لهم أن يؤمنوا به عن طريقه ، فلم يؤاخذهم بما يقعون فيه من الخطأ ، لأن الباحث عن الحقيقة قد يضل عن طريقها قبل أن يصل اليها ، وقد تعتريه شكوك وأوهام تحجبه حيناً عنها ، فلا يصل اليها إلا بعد جهاد وعناء ، وإلا بعد أن يتغلب على تلك الشكوك والأوهام ، فإذا وصل اليها بعد هذا أعطاه الله عليها أجرين : أجر ما عاناه فى البحث عنها ، وأجر الوصول اليها. وإذا مات وهو يبحث عنها نفعه هذا فى أخراه ، وشفع له فيها ماقام به من البحث قبل موته ، فيؤخذ بالعفو والصفح ، ولا يكون حاله كحال من لم يبحث عن الحقيقة .

وهذا إبراهيم عليه السلام قد أخطأ ثلاث مرات فيما سبق : أخطأ فى المرة الأولى حين جن عليه الليل ورأى كوكباً فقال هذا ربى ، وأخطأ فى المرة الثانية حين رأى القمر بازغاً فقال هذا ربى ، وأخطا فى المرة الثالثة حين رأى الشمس بازغة فقال هذا ربى هذا أكبر ، فلم يؤاخذه الله بخطئه بعد أن اهتدى اليه ، لأن الخطأ من طبيعة الإنسان ، وقد ركب عقله على أن يصيب ويخطىء ، فلا يجوز أن يؤاخذ على ما يقع فيه من خطأ ، بل لم يمنع ذلك الخطأ المتكرر من التنويه بمسلك إبراهيم فى الاستدلال ، لأن من الخطأ مالا يعاب ،

وكثيراً ما يكون الخطأ طريق الصواب ، ويكون الشك طريق اليقين .

ولم يفرق الاسلام فى إطلاق حرية البحث بين أصول الدين وفروعه ، بل فتح الباب فى ذلك على مصراعيه ، حتى إن الله سمح لبعض أنبيائه وأصفيائه أن يسأله فى أخطر مسائل الدين ، وأشدها دخولا فى باب الاعتقاد ، ومن هذا ماورد فى الآية « ٢٦٠ » من سورة البقرة (وإذْ قالَ ابراهيمُ ربِّ أرنى كيف تحيى الموتى قال أوَلمْ تؤمنْ قال بَلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي قال فخذْ أربعة من الطير فَصُرْهنَّ إليك ثم اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهن جزءاً ثم ادعهنَّ يأتينك سعيا واعلمْ أنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ) .

فقد سمح الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أن يسأله فى مسألة البعث ، وهى من أهم مسائل الاعتقاد ، ليزداد فيها اطمئنانا ، ويقوى بها إيمانا ، فلا يتطرق إليه فيها شك ، ولا يحوم حوله فيها شبهة ، ولا حرج فى طلب زيادة الإيمان ، وإن كان فى هذه المسألة من أصول الدين .

ومن ذلك أيضا ماورد فى الآيات « ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ » من سورة المائدة (إذْ قالَ الحواريُّون ياعيسى ابن مريمَ هلْ يستطيعُ ربُّك أن ينزل علينا مائدةً من السماءِ قالَ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أنْ نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلمَ أنْ قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابنُ مريم اللهمَّ ربَّنا أنزلْ علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوَّلنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنتَ خيرُ الرازقينَ ، قالَ الله إنى منزلها عليكم فمن يكفرْ بعدُ منكم فإنى أعذبُه به عذاباً لاأعذبه أحدا من العالمينَ) .

فقد جاء فى هذه الآيات أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) وقد كانوا أصفياء

عيسى ورسله ، وهذا السؤال فى صفة القدرة ، وهى أيضاً من أهم مسائل الاعتقاد ، ولكنهم أرادوا معجزة يزداد بها اطمئنانهم ، ويتضاعف بها يقينهم ، فأجابهم الله تعالى الى ماطلبوا ، لأنه أطلق لعباده حرية البحث عن الحقيقة ، وخلق الانسان وفى طبيعته من النقص مايجعله يتفاوت فى الإيمان قوة وضعفا . فلم يشأ مع هذا أن يضيق عليه اذا أراد أن يزداد يقيناً ، ولم ير حرجاً ألاَّ يقنعَ بما عنده من إيمان ، وأن يسأله مايطمئن به على إيمانه .

ولكن الله تعالى لم يقبل مع هذا أن يسمع لقوم آخرين ماعندهم من شبه أو شكوك ، بل غضب عليهم ولعنهم وطردهم من رحمته ، ولم يجبهم عن شبههم كما أجاب من أراد أن يزداد اطمئنانا ، وهذا كما فعل مع إبليس حين أمره بالسجود لآدم فأبى ، لأنه يرى أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له ، فقال فى الآيات « ١١ و ١٢ و ١٣ » من سورة الأعراف (ولقد خلقناكمْ ثمّ صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ لم يكنْ من الساجدينَ ، قال مامنعك ألاَّ تسجدَ إذْ أمرتك قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين ، قال فاهبطْ فما يكونُ لك أن تتكبّر فيها فاخرجْ إنك من الصاغرينَ) .

فقد أخطأ إبليس فى عصيانه أمر الله تعالى ، ثم أصرّ على خطئه ، واعتمد فيه على تلك الشبهة التى ذكرها ، والمصر على خطئه معاند لا يعذر فيه ، وكان عليه أن يجيب أمر الله تعالى أولا ، ثم يسأله عما عنده من شبهة ليزيل ما فى نفسه من ذلك الأمر ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل سلك طريق المعترض المعاند ، وبهذا لا يكون طالب حقيقة ، ولا يعذر فى خطئه ، لأنه لا يعذر إلا من طلب الحقيقة

فأخطأ فى طريقه إليها ، لما عنده من حسن القصد ، ومن أحسن القصد استحق العذر .

هذا ولا يقتصر ما جاء فى الإسلام من إطلاق حرية البحث على نصوص القرآن ، بل ورد فيه أمثلة رائعة فى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تدل على أنه كان يذهب فى إطلاق حرية البحث إلى أبعد حد ، ويضرب للمسلمين فيه أمثلة تعلمهم كيف يأخذون الناس فى الدعوة باللين واللطف ، ويمهلونهم فيها إلى أن يؤمنوا عن اقتناع ، ويهتدوا بعد طول بحث ونظر ، ولا يأخذونهم بقسر أو عجلة ، لأن الإيمان لا يقبل إلا إذا كان عن اعتقاد بالقلب ، وإلا إذا صار إليه صاحبه برضا واختيار .

ومن ذلك أن صفوان بن أميّة بن خلَف الجُمَحى كان من أشد قريش عداوة للإسلام ، وكان إليه فى الجاهلية أمر الأزلام ، وهو أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية من عشر بطون فى قريش ، فلما قتل أبوه أمية وغيره من أشراف قريش فى غزوة بدر ، جلس هو وعُمير بن وهب الجمحى فى الحِجْر ، وكان شيطاناً من شياطين قريش ، فذكر مصاب قريش فى أشرافها ، فقال صفوان : والله إنْ فى العيش بعدهم خير . فقال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دَيْن علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله . فقال له صفوان : علىّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم . فقال له عمير : فاكتم عنى شأنى وشأنك . ثم أمر بسيفه فشحذ له ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فرآه عمر بن الخطاب فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بإدخاله عليه ، فلما دخل عليه قال

له : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم — وكان ابنه من أسرى بدر — فقال له : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئا ؟ فقال له : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ماجئت إلا لذلك . فقال له : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القَليب من قريش . وذكر له كل ماحصل بينهما ، وكان سراً لا يعلمه غيرهما ، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله . فأسلم بعد أن أخبره بهذا السر .

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير إلى المدينة يقول لقريش : أبشروا بواقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل عن عمير الركبان ، فلما رجع إلى مكة مسلماً حلف لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبدا .

ثم كان من صفوان بعد ذلك أن رهطاً من عَضَل والقارَة قدموا مكة بأسرى من المسلمين غدروا بهم ، فابتاع منهم صفوان زيد ابن الدَّثِنَّة ليقتله بأبيه أمية ، ثم بعث به مع مولى له إلى التنعيم ليقتله خارج الحرم ، فقتله هناك أمام رهط من قريش .

فلما قصد النبى صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح أهدر دم صفوان فيمن أهدر دمه ممن كانت له مثل هذه الجرائم . فهرب صفوان بعد فتح مكة يريد جُدَّة ليركب البحر منها إلى اليمن ، فجاء عمير إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : يا نبى الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه فى البحر ، فأمِّنه . فأجابه صلى الله عليه وسلم إلى ماطلب منه .

فخرج عمير وراء صفوان حتى أدركه ، وأخبره بأمان النبى صلى الله عليه وسلم . ولم يزل به حتى رجع به إلى مكة ، فدخل على النبى

صلى الله عليه وسلم وقال له : إن هذا — يعني عميرا — يزعم أنك قد أمّنتني . فقال له : صدق . فطلب منه أن يبقيه على الشرك شهرين ، فقال له : لك أربعة أشهر .

وهذا هو محل الشاهد من هذه القصة ، لأن صفوان لم يطلب أن يبقى شهرين على الشرك إلا ليبحث فيما يقدم عليه من الإسلام ، ولا يكون كمن أسرع إلى الاسلام من قريش بروعة الفتح ، وبادر إليه بتأثير النصر ، بل يسلم بعد أن تذهب تلك الروعة ، ويمضى زمن على ذلك النصر الذى أخذ بقلوب قريش ، فيصير إلى الاسلام بعد أناة وطول بحث ، وبعد موازنة بين ما كان عليه وماسيصير إليه ، ليفرق بين العهدين ، ويميز بين الحالين ، فيرى الحق مقتنعاً بالدليل ، ويطمئن إليه بالعقل ، ويؤمن إيماناً يليق بما كان يعرف به بين قريش من صواب الرأى ، وحسن المعرفة ، وكمال العقل .

ولم ير النبى صلى الله عليه وسلم حرجاً فى أن يجيبه إلى ما طلب ، ولا فى أن يعطيه أربعة أشهر ، فيزيده شهرين على ما طلب ، لأنه لا يطلب من الناس إيماناً لا يجاوز حناجرهم ، ولا يصل إلى قلوبهم ، وإنما يطلب منهم إيماناً يوافق القلب فيه اللسان ، ويكون اعتقاداً بالقلب ، قبل أن يكون إقراراً باللسان ، وعملا بالجوارح ، فإذا رأى شخص أنه لا يمكنه أن يصل إلى هذه الدرجة من اليقين إلا بعد البحث والنظر ، وإذا رأى أن هذا البحث لا يتم إلا فى مدة مثل المدة التى طلبها صفوان أو أقل أو أكثر ، أجيب إلى ما يطلبه من الإمهال ، حتى لا يكون هناك قهر أو إلجاء على الإسلام ، بل يكون الإسلام عن طواعية واختيار ، ويكون الإيمان عن اعتقاد بأن الإسلام هو الدين الحق .

وقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم صفوان إلى ما طلب وهو لا يعلم هل يبقى إلى هذه المدة أو يموت ؟ بل جاءت غزوة حنين عقب فتح مكة فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وخرج صفوان معه على شركه ، ليحارب فى صفوف المسلمين ، والحرب تدنو فيها المنايا ، وتقرب فيها الآجال ، فلم ينقض النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من مدة إمهال صفوان ، ولم يخف أن تبادره المنية فى هذه الغزوة فيموت مشركا ، ويكون عليه شيء من التبعة فى موته على الشرك ، لأنه هو الذى أذن له فى البقاء عليه إلى تلك المدة .

وإنما لم يخف النبي صلى الله عليه وسلم هذا لأن صفوان كان يطلب الحقيقة فى تلك المدة ، ويسعى فى سبيل الوصول إليها ، ويقلب وجوه النظر التي تجعله يذعن بها ، وطالب الحقيقة على هذا الوجه لا شيء عليه إذا مات دون الوصول إليها ، لأن التكليف يعتمد القدرة على المكلف به ، ولا يمكن الإيمان بالحقيقة إلا بالدليل ، والدليل يقتضى زمناً يختلف باختلاف الناس ، فمن مات وهو يطلب الدليل يكون معذوراً ، ولا يكون شأنه كشأن المعاند فى طلب الحقيقة ، ولا كشأن من يعرفها ولا يؤمن بها ، لأن طالب الحقيقة يصل إليها غالباً ، فمن سار على الدرب وصل ، والحقيقة بنت البحث ، فإذا مات دون ذلك كان الأجل هو الذى حال بينه وبينها ، والأجل يرجع إلى الله تعالى ، ولا يد فيه للخلق .

وكان من أمر صفوان بعد إمهاله أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه حين قصد غزوة حنين أن عنده أدرعا وسلاحا ، فأرسل إليه فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا . فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك . فقال

صفوان : ليس بهذا بأس . ثم أعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

ثم ساروا إلى غزوة حنين ، فامتحنهم الله فى أولها امتحاناً شديداً حين أعجبتهم كثرتهم ، وهنا ظهر الفرق بين صفوان الذى يريد أن يسلم عن طمأنينة نفس ومن أسلم بروعة الفتح ، فقد فرح كثير ممن أسلم بتلك الروعة حين هزم المسلمون ، وجاء بعضهم إلى صفوان فقال له : الآن بطل السحر . فقال له : أسكت فضَّ الله فاك ، لأن يَرُبَّنِى رجل من قريش خير من أن يربى رجل من هوازن . ثم جاء إليه آخر يبشره بهذه الهزيمة ، فقال له : أتبشرنى بظهور الأعراب .

ولا شك أن هذا يدل على أن صفوان قطع شوطا بعيدا فى الوصول إلى الحقيقة التى ينشدها ، حتى كان فى شركه أفضل من أولئك الذين أسلموا على عجل ، وبتأثير دهشة الفتح ، فلما هزم المسلمون فى هذه الغزوة نكصوا على أعقابهم ، وذهبت دهشة الفتح التى كانت سببا فى إسلامهم ، أما صفوان فكان قد بحث وقلب وجوه النظر ، وعرف أن الإسلام يدعو إلى الإصلاح والنظام ، وأن أولئك الأعراب لا يرجى منهم ما يرجى من الإسلام ، فلم يفرح بظهورهم على المسلمين .

وقد انتصر المسلمون فى هذه الغزوة بعد هزيمتهم ، وغنموا فيها غنائم كثيرة ، فأعطى النبى صلى الله عليه وسلم منها من أسلم فى الفتح عطاء كثيرا ، تأليفا لهم ، وتثبيتا لإسلامهم ، وأعطى صفوان مائة من الإبل ، ثم مائة ، ثم مائة ، ورآه يرمق شعبا مملوءا نعما وشاء ، فقال له : لعله يعجبك هذا ؟ قال : نعم . فقال له : هو لك وما فيه . فقال صفوان : إن الملوك لا تطيب نفسها بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد

قط بمثل هذا إلا نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فأسلم صفوان بعد أن رأى بعقله أن شأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس من شأن الملوك ، وبعد أن اهتدى بعقله إلى أنه نبي لا ملك ، وكان هذا قبل أن تنتهي المدة التي أمهل فيها على الشرك ، فكان إسلاما يليق بأمثال صفوان من العلماء الباحثين ، والحكماء المفكرين .

ثم سار الخلفاء الراشدون هذه السيرة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان بعض الصحابة يصل فيما أطلق لهم من حرية البحث إلى حد الشذوذ ، ومخالفة إجماع الجمهور ، فيكتفي في أمره بأن يبين له ما وقع فيه من خطأ ، ثم يترك لنفسه ليتدبر أمر خطئه ، فإذا اقتنع بأنه أخطأ رجع إلى الصواب عن رضا واختيار ، وإذا لم يقتنع بأنه أخطأ لم تستعمل معه أية وسيلة من وسائل القهر والإكراه ، ولم يثر عليه العامة وأشباه العامة حتى يرجع عن رأيه ، فيرجع تسكينا لثورتهم ، لا عن اقتناع بأنه مخطىء ، كما حصل بعد عهد الخلفاء الراشدين ، فكان له أسوأ أثر في المسلمين ، لأنه حد من حريتهم ، فركنوا إلى الجمود ، وهابوا الرأي الحر ولو كان صوابا ، خوفا من ثورة العامة وأشباههم عليهم ، ومن الأذى الذي يلحقهم بسبب ثورتهم .

ومن ذلك ما وقع من قُدامة بن مظعون في عهد عمر بن الخطاب ، وكان قدامة من السابقين إلى الإسلام ، وممن هاجر إلى الحبشة والمدينة ، وممن شهد بدرا وغيرها من المشاهد ، وكان زوجاً لصفية أخت عمر ابن الخطاب ، وواليا لعمر على البحرين .

وقد اتهم في ولايته على البحرين أنه شرب الخمر ، وشهد عليه بذلك بعض الشهود ، فقال له عمر : إني حادُّك . فقال قدامة : لو

شربت كما تقول ما كان لكم أن تحدُّونى . فقال له عمر : لم ؟ فقال : قال الله عز وجل (ليسَ على الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعمُوا إذا ما اتَّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا واللهُ يحبُّ المحسنينَ) فقال له عمر : أخطأت التأويل ، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله .

فقد خالف قدامة الجمهور فى هذا الرأى ، وصار إلى رأى شاذ مخالف لصريح القرآن ، لأن الله تعالى قد حرم الخمر تحريما صريحا قبل الآية التى احتج بها لرأيه ، وهى الآية «٩٣» من سورة المائدة ، فقال فى الآية «٩٠» من هذه السورة (يا أيها الذينَ آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوهُ لعلكمْ تفلحونَ) ففهم قدامة أن الآية التى احتج بها تنفى الجناح عن كل ما يطعمه الإنسان من خمر وغيره ، فتكون تقييدا لتلك الآية ، وهذا خطأ ظاهر يأباه سياق الآيات ، ويأباه الإجماع على تحريم الخمر بعد نزول تلك الآية ، وما كان لقدامة أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن عمر لم يثر عليه لهذا الخطأ الظاهر ، وقد وقع فى مسألة الخمر التى اهتم الإسلام بتحريمها أعظم اهتمام ، بل اكتفى بأن أظهر له خطأه فى هوادة ورفق ، وذكر له أن الله لم ينف الجناح عن كل ما يطعمه الإنسان نفيا مطلقا ، بل قيده بتقوى الله تعالى ، والتقوى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، فلا يدخل فى ذلك ما حرمه الله من خمر وغيره .

ولم يكن من عمر بعد هذا إلا أن اكتفى بإقامة حد الخمر على قدامة ، وإلا أن أبقاه عنده بالمدينة ، ولم يعده إلى ولايته ، لأن أمره لا يستقيم بين أهلها بعد ما كان منه ، وكل من الأمرين يدخل فى

العقوبة على شرب الخمر ، وليس فى الأمرين عقوبة على ذلك الرأى الذى أخطأ فيه ، وحاول به أن يسوغ ما أتاه من شرب الخمر .

فلم يغضب عمر على قدامة بعد هذا لأنه شذ على الجمهور بذلك الرأى ، ولأنه رأى به ما لم يكن يليق به فى سابقته وشرفه ، بل كان قدامة هو الذى غضب على عمر ، ومكث مغاضبا له إلى أن حج عمر فى سنة من السنين ، فلما رجع من حجه نزل بالسقيا فنام به ، وهو موضع بين المدينة ووادى الصفراء ، فلما استيقظ من نومه قال : عجّلوا علىّ بقدامة ، فوالله لقد أتانى آتٍ فى منامى فقال لى : سالمْ قدامة فإنه أخوك ، فعجلوا على به .

فذهبوا إلى قدامة فأخبروه بأمر عمر ، فأبى أن يذهب معهم اليه ، فرجعوا إلى عمر فأخبروه بأنه أبى أن يأتى معهم ، فأمرهم أن يرجعوا اليه فيجرّوه إن أبى ، فلما رأى قدامة ذلك ذهب معهم اليه ، فكلمه عمر واستغفر له ، فتصالحا وعادا إلى مثل ما كانا عليه .

ومن ذلك أيضا ماوقع من أبى ذَرٍّ الغفارىّ فى عهد عثمان بن عفان ، وكان أبو ذر من السابقين إلى الإسلام ، وقد بلغ من منزلته عند النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يبتدئه إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب ، حتى قال فى حقه : ما أقلّت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء ، أصدق لهجة من أبى ذر .

وكان أبو ذر قد اختار الإقامة بالشام ، فلما ذهب اليها عبد الله ابن سبأ لينشر فيها فتنته لقى أبا ذر فقال له : يا أباذر ، ألا تعجب إلى معاوية — وكان واليا على الشام — يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين[1] ويمحو اسم المسلمين .

(١) احتجن المال ضمه واحتواه .

فوافق هذا ماطبع عليه أبو ذر من الزهد ، وما إن سمعه حتى قام إلى معاوية فقال له : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ فقال له معاوية : يرحمك الله يا أباذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره . فقال له أبو ذر : فلا تقله . فقال له معاوية : فإنى لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول إنه مال المسلمين .

وهذا المال هو مال الفيء ، وقد أراد أبو ذر أن ينكر على معاوية احتجانه دون المسلمين بحجة أنه مال الله ، فتكون له الولاية عليه والتصرف فيه ، فخالفه أبو ذر فى هذا ، ورأى أنه لا يصح له احتجانه دونهم ، بل يجب أن ينفقه كله عليهم ، ولا يدخر منه شيئا .

ثم تجاوز أبو ذر برأيه مال الفيء الى الأموال الخاصة ، فرأى أنه لا يصح لشخص أن يقتنى أكثر من قوت يومه ، وقام بالشام يدعو الى هذا ويقول : يامعشر المسلمين ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فولع الفقراء به ، والتفوا حوله ، وأوجبوا على الأغنياء مايدعو اليه ، فشكى الأغنياء منه الى معاوية ، فكتب الى عثمان :

إن أبا ذر تجتمع اليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك .

فكتب عثمان الى معاوية :

إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر الىّ ، وابعث معه دليلا ، وزوده وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت .

فبعث معاوية أباذر إلى عثمان ومعه دليل ، فقال له عثمان حين دخل عليه : يا أباذر ، ما لأهل الشام يشكون ذربك ؟ فذكر له أنه لاينبغى أن يقال مال الله ، ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال له عثمان : يا أباذر ، علىّ أن أقضى ما علىّ ، وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد .

وكان رأى عثمان هو رأى جمهور المسلمين ، وقد جرى العمل به فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد أبى بكر ، وفى عهد عمر ، فشذ عنهم أبو ذر بهذا الرأى ، وخالف به إجماعهم ، فلم يكن من عثمان إلا أن بين له خطأه فيه ، ولم يحاول أن يرجعه عنه بوسيلة من وسائل القهر والإكراه ، بل كان أبو ذر يستعمل الشدة فى الدعوة إلى رأيه ، فيقابله عثمان باللين ، وقد دخل على عثمان يوما وعنده كعب الأحبار ، فقال لعثمان : لاترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغى للمؤدى الزكاة ألاّ يقتصرَ عليها ، حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ، ويصل القرابات . فقال له كعب : من أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه . فرفع أبو ذر محجنه فضرب كعبا فشجّه ، ثم قال له : يا ابن اليهودية ، ماأنت وماهنا ؟ فقال له عثمان : ياأباذر ، اتّق الله ، واكفف يدك ولسانك . ثم استوهب كعبا ما فعله معه ، فوهبه له ، وقد دخل أيضا على عثمان وعنده كعب الأحبار ، فأتى بتركة عبد الرحمان بن عوف ، فنضّت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : إنى لأرجو لعبد الرحمان خيرا ، لأنه كان يتصدق ، ويقرى الضيف ، وترك ما ترون ! فقال كعب : صدقت ياأمير المؤمنين . فشال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب ، ثم قال : يا ابن اليهودي ، تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه

خير الدنيا والآخرة ! وتقطع على الله بذلك ! وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ماسرنى أن أموت وأدع مايزن قيراطا » .

ولكن أبا ذر لم يجد فى المدينة من يستمع لرأيه ، فضاق بأهلها ، وطلب من عثمان أن يأذن له فى الخروج منها ، فأذن له فخرج حتى نزل الرَّبذَة بالبادية ، فخطَّ بها مسجدا ، وقد أقطعه عثمان صدقة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأرسل إليه أنْ تعاهد المدينة حتى لاترتدَّ أعرابيا ، وقيل : إن عثمان نفاه إلى الربذة . فإذا صح هذا فإنه لايكون عقابا له على رأيه ، وإنما كان لأن أبا ذر جاوز الحد فى الدعوة اليه ، فلجأ فيها إلى وسائل لايليق اتخاذها فى تأييد الرأى ، من السب والشتم والضرب ، فيكون إبعاده لكف أذاه عن الناس ، وهذا إلى أن المسلمين كانوا فى فتنة شديدة ، وكانت هناك ثورة تدبر للقضاء على حكم عثمان ، وكان أبو ذر من المشتركين فيها ، فيكون إبعاده لهذا أيضا .

ولا شك أن ماجرى لقدامة وأبى ذر يثبت أن الاسلام يمضى فى حرية البحث إلى نهايتها ، فيأخذبها الناس حين يتجهون إلى البحث ، ولايمنعهم من البحث الحر فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، فإذا انتهى البحث بهم إلى الخطأ اكتفى بأن يبين لهم خطأهم ، ولم يجاوز هذا بأن يحاول إرجاعهم عنه بوسائل القهر ، بل يتركهم بعد تنبيهم إلى خطئهم أحرارا ، ليرجعوا عنه وهم مقتنعون بأنه خطأ ، ويصيروا إلى الصواب عن رضا واختيار .

ثم كان فى خلافة على بن أبى طالب ماهو أدهى مما كان من قدامة وأبى ذر ، إذ ظهر فيها عبدالله بن سبأ ، وكان يهوديا فأظهر الاسلام ، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه

وجد فى التوراة أن لكل نبى وصياً ، وأن علياً وصىّ محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمدا خير الأنبياء ، فلما سمع ذلك منه شيعة علىّ قالوا له : إنه من محبيك . فرفع قدره وأجلسه تحت درجة منبره ، ثم إنه تغالى فى ذلك حتى زعم أن عليا نبى ، بل زعم أنه إله ، فهمّ على بقتله حين ظهر منه ذلك ، فنهاه ابن عباس وقال له : إن قتلته اختلف عليك أصحابك . فنفاه إلى ساباط المدائن ولم يقتله ، وهذا يدل على أنه لا يلزم قتل المرتد ، لأنه لو كان يجب قتل المرتد لقتل على عبدالله بن سبأ ، ولم يكتف بنفيه إلى ساباط المدائن ، وإنما نفاه إليها لأن ما ذهب اليه ليس فى شىء من الرأى ، وإنما هو جهالة وضلالة تضر الناس ، وتفسد الأفكار ، ومثل هذا لا شىء فى العقوبة عليه بالنفى ونحوه ، أما قتل المرتد فقد شاع بيننا بشيوع المذاهب الفقهية الأربعة ، لأنها متفقة على قتل المرتد مطلقا ، ومن المذاهب مايقصر قتله على الذكر دون الأنثى ، ومنها مايرى أنه لا يقتل مطلقا ، بل يستتاب أبدا إلى أن يموت ، وهذا المذهب أوفق عندى بما جاء به الاسلام من أنه لا إكراه فى الدين ، لأن نفى الإكراه يجب أن يكون بعدم قهر أحد على الأخذ به فى الابتداء والدوام ، إذ لا فرق بين الأمرين ، ولا معنى لإكراه المرتد على الرجوع الى الاسلام اذا لم يكن رجوعه عن اقتناع ، لأن هذا لا يجعله مسلما إسلاما صحيحا ، ولا ينفعه عند الله تعالى .

وكما جاء الإسلام بإطلاق الحرية الدينيـة ، جاء بإطلاق الحرية السياسية ، فجعل الناس أحراراً فى أمور دينهم وسياستهم ، ومن هذا ماحصل فى بيعة أبى بكر بالخلافة ، فقد تخلفت فاطمة عن بيعته حتى ماتت بعد ستة أشهر من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يكرهها أحد

على بيعته قبل وفاتها ، وتخلف أيضا عن بيعته علىّ بن أبى طالب ، لأنه كان يرى أنه أحق منه بالخلافة ، ولم يبايعه إلا بعد وفاة زوجه فاطمة ، وتخلف أيضاً عن بيعته سعد بن عُبادة ، لأنه كان يرى أن الأنصار أحق بالخلافة من المهاجرين ، وكان رئيس الأنصار ، فيكون أحق بها من أبى بكر ، وقد مكث على رأيه مدة خلافته ، ولما بايع الناس عمر بعده لم يبايعه أيضا ، ومكث على رأيه وحده دون المسلمين جميعا ، ولما فتح الشـــام ذهب إلى حوران فأقام بها إلى أن توفى سنة ١٥ هـ .

ومن ذلك أن الخوارج أنكروا خلافة على بعد بيعتهم له ، فلم ير أن يكرههم على الدخول فى خلافته ، بل قال لهم فى بعض خطبه : إن لكم عندنا ثلاثاً ماصحبتمونا ، لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفىء مادامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا .

فلما خرجوا من الكوفة وأخذوا يقتلون من لايرى رأيهم فى علىّ وأصحابه خرج إلى قتالهم ، ولم يبدأهم بالقتال حتى أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم. فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم . فقاتلهم على لقتلهم المسلمين واستحلالهم دماءهم ، ولم يقاتلهم على رأيهم فى خلافته .

رد على رد :

أثار ماذكرته فى مقال ـــ الإسلام وحرية البحث ـــ اعتراضات كثيرة ، فأخذ بعض العلماء علىّ أنى لا أفرق بين حرية البحث والنظر فى الدليل ، وأنى أعنى من حرية البحث إرخاء العنان للفكر فى ترتيب

المقدمات واستخراج النتائج خطأ أو صواباً فى كل شىء ، ورد علىّ بأن الإسلام أطلق حرية البحث فيما عدا الأمور العقلية المتعلقة بالعقائد ، ولم يجز لأحد من أهل القبلة أن يكون حراً فى بحث يؤديه إلى الكفر والإلحاد ، وهو يتجنى فى هذا علىّ ، لأنه لا يمكن أن أريد هذه الحرية المطلقة التى تبيح الكفر والإلحاد لأهل القبلة ، وإنما أريد الحرية التى أتى بها الاسلام ، كما يفهم من سياق كلامى ، ومعناها أننا لا نكره أحداً على الإيمان ، بل ندعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذا هو ماصرح به القرآن الكريم فى الآية « ٢٥٦ » من سورة البقرة (لا إكراه فى الدين) وفى الآية « ١٢٥ » من سورة النحل (أدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظة الحسنة) .

ثم أخذ علىّ أنى نسبت إلى ابراهيم أنه كان يعبد الكواكب ، مع أنه لم يرد هذا فى كلامى ، وإن قال به بعض المفسرين، قال ابن كثير: اختلف المفسرون فى هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس قوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوتَ السماوات والأرض وليكونَ من الموقنين) يعنى الشمس والقمر ، فلما جنّ عَليه الليل رَأى كوكبا قال هذا ربى فعبده حتى غاب ، فلما غاب قال لا أحب الآفلين إلخ . وقد رجح ابن جرير هذا الرأى مستدلا بقوله (لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) وابن جرير له منزلته بين المفسرين ، وقد سوغ بعضهم هذا بأنه كان فى حال الطفولة . واختار صاحب الكشاف أن المقام فى ذلك مقام مناظرة بين إبراهيم وقومه ، فجاراهم فى ذلك ليبين لهم وجه الخطأ فيه، ثم قال : وقيل هذا كان نظره واستدلاله فى نفسه ، فحكاه الله،والأول أظهر . فلم يعد الأمر عند صاحب الكشاف أن يكون ما اختاره

أظهر مما اختاره ابن جرير ، وأظهر أفعل تفضيل تقتضى اشتراك المقامين فى أصل الظهور ، فلو أنى نسبت فى مقالى إلى ابراهيم أنه كان يعبد الكواكب لكنت ذاهبا فى هذا مذهب من يرى من المفسرين أن المقام فيه كان مقام نظر لامقام مناظرة ، ولكنى لم أقل ذلك ، وإنما قلت : إن إبراهيم أخطأ ثلاثاً فى قوله (هذا ربى) وخطؤه فى هذا لايتعين أن يكون بالشرك وعبادة الكواكب . فقدذكر القرطبى أن بعض المفسرين ذهب إلى أن إبراهيم ظن حين رأى الكوكب أن نوره نور ربه ، فلما أفل ظهر له أنه ليس بنوره،وهذا كما قال القرطبى خطأ لاشرك فيه ، على أنى أرى أن إبراهيم كان فى مقام نظر وبحث قبل النبوة ، ومقام النظر والبحث مقام فرض واستنتاج ، ولا يصل صاحبه إلى مقام الاعتقاد إلا بعد الانتهاء من البحث ، فلايصح أن ينسب إليه إلا الرأى الأخير الذى ينتهى إليه فى البحث ، وعلى هذا لايصح أن ينسب إلى إبراهيم إلا الحقيقة التى وصل إليها بعد بحثه ، لأن ما كان منه أثناء بحثه كان على سبيل الفرض والتقدير ، ولم يكن على سبيل الاعتقاد والجزم .

ثم أخذ علىّ أنى قلت إن إبراهيم سأل ربه كيف يحيى الموتى لدفع الشك عن نفسه ، مع أنى لم أقل هذا ، وإنما قلت إن إبراهيم سأل ذلك ليزداد اطمئناناً . ويقوى إيمانا . فلم يكن السؤال عندى لدفع الشك، وإنما كان لزيادة الاطمئنان. كما قال صاحب الكشاف : ليزدادسكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين .

ثم أخذ علىّ أنى أجوز الاجتهاد فى العقليات من العقائد ، وذكر أن هذا يؤدى الى تجويز الاجتهاد فى وجود الله ووحدانيته وقدرته

وغير هذا مما لا يجوز الاجتهاد فيه ، ولاشك أن فى هذا كثيرا من التجنى علىّ ، لأنه لايمكن أن يصل بى الأمر إلى تجويز الاجتهاد فى مثل ذلك من العقائد ، وإنما أجوز الاجتهاد فيما اختلفوا فيه منها ، وقد ذهب ابن رُشد إلى تجويز الاجتهاد فى العقائد، وهو من أئمة المالكية، ولا يريد إلا تجويز الاجتهاد فيما يقبل الاجتهاد من العقائد ، كما أن الاجتهاد فى الفروع إنما يجوز فيما يقبل الاجتهاد منها ، لأن منها مالا يقبل الاجتهاد كوجوب الصلاة ، كما أن من الأصول ما لا يقبل الاجتهاد كوجود الله .

ثم ذكر أنى أحاول فى مقالى إرضاء بدعة جديدة تسمى حرية البحث ، فوافق فى هذا من يزعم من أعداء الإسلام أنه عدو البحث الحر ، والحقيقة أن حرية البحث ليس بدعة فى الإسلام ، وإنما هى مفخرة من مفاخره ، وميزة يمتاز بها على غيره من الأديان، ولا يحملنى على إثبات هذه المفخرة إلا أن بعض أعداء الإسلام يزعم أنه عدو البحث الحر ، ويدعى أن هذا هو السبب فى تأخر المسلمين ، وهذا غرض شريف أستحق عليه الإنصاف ، وجهاد فى سبيل الله أستحق عليه التأييد .

ومن العلماء من اعترض على ماذكرته فى مسألة صفوان بن أمية، فذكر أن إمهال النبى صلى الله عليه وسلم له لم يكن ليبحث وينظر، فيجىء إسلامه عن اقتناع بالدليل ، ومعرفة بالحقيقة ، لأن كثيراً من سادة قريش كان على بينة من الإسلام ، ولم يكن ينكره إلا حسدا وكبرا ، وكان صفوان منهم ، فلم يكن طلبه المهلة ليعرف الحقيقة ، وإنما كان ليتغلب على شهوته ، ويدخل الإسلام بعد أن يصفى قلبه من الأحقاد والإحن ، وجوابى على هذا أنه لادليل على أن صفوان كان على بينة

من أمر الاسلام ، وإنما كان ينكره حسداً وكبرا ، وأنه لو سلم هذا لكان أدل على غرضي مما ذكرته في مقالي ، لأن إمهال المعاند أدل عليه من إمهال غير المعاند ، ولهذا اتفقوا على أن المعاند غير معذور ، واختلفوا في عذر غير المعاند .

ثم ذكر أنه لو سلم أن صفوان لم يكن معاندا فهل يكون معذورا لأنه يطلب الحقيقة . ومن مات وهو يطلب الحقيقة يكون معذورا ؟ وذهب الى أن صفوان لو مات في تلك المهلة مات مشركا ، ولم يكن معذورا ، لأن الآيات التي ظاهرت النبي صلى الله عليه وسلم وأيدت دعوته لم تكن في كهف من الكهوف ، ولم تكن في أقصى الأرض ، حتى يتطلب اليقين بها زمنا ، وإنما كانت بين أيديهم ، وملء أسماعهم وأبصارهم . وجوابي على هذا أن وضوح الأدلة يختلف باختلاف الأشخاص ، فرب شخص يصل الى دليل في يوم ، ولا يصل غيره إليه إلا في شهر أو أكثر ، ولو كانت تلك الأدلة لا تتطلب زمناً عند صفوان بن أمية لما أمهله النبي صلى الله عليه وسلم تلك المدة .

ثم ذكر أن من قال من مسلمة الفتح حين انهزم المسلمون في حنين — الآن بطل السحر — كان إسلامه مدخولا ، ولست أدري أي داع الى تكلف هذا ؟ لأن كثيرا من الناس يسلم إسلاما صحيحا ثم يرتد ، ولا مانع من هذا في مسلمة الفتح ، كما لا مانع من أن إسلام بعضهم كان مدخولا .

ومن العلماء من ذكر أن قتال مانعي الزكاة ينافي ما ذكرت ، لأنهم كانوا متأولين في منع الزكاة ، ومع هذا قاتلهم أبو بكر في خلافته ، ولم يقم وزناً لرأيهم في منع الزكاة ، وجوابي على هذا أن أبا بكر لم يخالف بهذا ما ذكرت من احترام الاسلام لحرية الرأي ، ولان شنعت عليه بهذا طائفة من الشيعة ، وذهبت الى أن قتاله لهم كان ظلماً وعسفاً .

لأنهم كانوا يرون أن الخطاب فى قوله تعالى فى الآية «١٠٣» من سورة التوبة (خذْ من أموالهمْ صدقةً تطهرهمْ وتزكّيهمْ بها وصلّ عليهمْ إنّ صلاتكَ سَكَنٌ لهمْ) خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه ليس لأحد من التطهير والتزكية والصلاة على المتصدق مثل ماله، وإنما لم يكن فى هذا مخالفة لما ذكرت لأن الزكاة حق الفقراء فى مال الأغنياء، ويجب على ولى الأمر أن يأخذه من الأغنياء إذا منعوه، ولو أدى هذا إلى استعمال القوة معهم، كما يجب عليه أن يرد كل مال مسلوب إلى صاحبه، ولو أدى هذا إلى استعمال القوة مع السالب له، ولهذا أعطت القوانين العادلة للحكومات حق استعمال القوة مع من يمتنع من دفع الضرائب، لأن الضرائب لازمة للقيام بمصالح الرعية، فيترتب على الامتناع من دفعها مفاسد كثيرة. والزكاة فى الإسلام مثل الخراج والضرائب فى غيره، ولهذا أعطى الإسلام للخليفة حق استعمال القوة مع من يمنعها من المسلمين.

وقد ذهب أبو حنيفة الى أن مانع الزكاة لايقتل ولا يقاتل، بل تؤخذ الزكاة منه قهرا، ولا يحل دمه الا اذا انتصب للقتال، كما فعل أبو بكر مع مانعى الزكاة فى خلافته، لأنه لم يقاتلهم إلا عند ما انتصبوا لقتاله، وقد ذكر العينى هذا فى شرحه على صحيح البخارى، وبهذا يثبت أن مانعى الزكاة فى خلافة أبى بكر لم يقتصروا على منعها، بل انتصبوا للقتال أيضا، ومن يقاتل على رأيه لايكون فى قتاله مخالفة لما ذكرت من احترام الاسلام لحرية الرأى، لأن من يرى من الرعية رأيا لايصح له أن يقاتل حكومته عليه، وإلا صار الأمر فوضى، وضاعت فائدة قيام الحكومة، لأن لها حق الطاعة على كل فرد من رعيتها، ولو كان له رأى يخالفها فيه.

وقد ذكر الخطابى أن العرب فى أول خلافة أبى بكر كانوا ثلاثة أصناف : صنف ارتد عن الاسلام ، لكنه لم يعد إلى جاهليته الأولى ، بل صار إلى أديان اخترعها لهم أمثال مسيلمة وسجاح . وصنف عاد إلى جاهليته الأولى من عبادة الأوثان وإنكار الأديان والشرائع من صلاة وزكاة وغيرهما . وصنف فرقوا بين الصلاة والزكاة ، فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها الى الإمام ، وقد اتفقت كلمة الصحابة على كفر الصنفين الأولين ، كما اتفقوا على إسلام الصنف الثالث — مانع الزكاة — ولا شك أن هذا لم يكن منهم إلا احتراما لرأيه فى منعها ، ولشبهته التى استند عليها فيما سبق ، وقد اختلفوا فى قتاله بعد اتفاقهم على إسلامه ، فرأى جمهور الصحابة أنه لا يحل قتاله ما دام يشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان هذا مغالاة منهم فى الانتصار لحرية الرأى ، ورأى أبو بكر وحده أن يقاتلهم على حق الفقراء ، كما يقاتل غيرهم على شهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان هذا هو الرأى الصواب ، فرجع جمهور الصحابة اليه ، وقاتلوا مانعى الزكاة كما قاتلوا المرتدين من العرب ، ولكن القتال لم يجر مع مانعى الزكاة كما جرى مع المرتدين ، بل جرى على نظام قتال البغاة والخوارج من المسلمين ، لأنهم منهم فى نظر الفقهاء ، ولقتالهم أحكام خاصة مذكورة فى كتب الفقه .

متى كان التحدى بالقرآن ؟

اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم من بين العرب خاتما لرسله ، وقد اقتضى هذا أمرين فى المعجزة التى اختص بها : أولهما أن تكون من جنس ما اشتهر العرب بالنبوغ فيه ، لأن معجزة كل رسول تكون من جنس ما نبغت فيه أمته . وثانيهما أن تكون معجزة باقية على الدهر ، لتبقى ببقاء الشريعة التى أريد ختم الشرائع بها ، كما أريد ختم الرسل بالرسول الذى اختير لتبليغها ، وقد اقتضى هذا وذاك أن يكون القرآن الكريم معجزة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بعض الرسل يبعث ومعه معجزته ، فيبتدىء أمره بها ، ويبلغها لقومه مع تبليغ رسالته ، كما أرسل موسى الى فرعون ومعه معجزة العصا ، وقد طلبها من ربه حين اختاره لرسالته ، ليبلغها لفرعون حين يخبره أنه رسول الله اليه .

ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم وهى القرآن لم يكن لها هذا الشأن ، لأنه لم ينزل عليه دفعة واحدة يتم بها إعجازه ، وإنما كان أول ما نزل عليه منه حين اختير لرسالته هو هذه الآيات من سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) فلم يكن معه من معجزة القرآن حين بعث ما يتحقق به التحدى المطلوب فى كل معجزة ، وقد نزل القرآن هكذا مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان ينزل عليه فيها على حسب الأحوال والوقائع .

وإنما لم يكن لدى النبى صلى الله عليه وسلم معجزة حين بعث كما كان

لدى موسى وغيره من الرسل ، لأنه لم يتهيب رسالته كما تهيبها موسى وغيره ، ولم يطلب أن يؤيد بمعجزة كما طلب موسى من ربه ، كما قال تعالى فى الآيات «١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥» من سورة الشعراء (قال ربِّ إنى أخافُ أنْ يكذبون ، ويضيقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى فأرسلْ الى هارونَ ، ولهم علىّ ذنبٌ فأخافُ أنْ يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعونَ) وإنما لم يطلب النبى صلى الله عليه وسلم من ربه معجزة حين بعث لأن قومه لم يبلغوا من القوة والطغيان ما بلغه فرعون موسى ، فلم يخف منهم ما خافه موسى منه ، ولأنه كان له منزلة بينهم قبل بعثته حتى كانوا يلقبونه الأمين ؛ فرجا أن يؤمنوا به من غير معجزة ، وهذا الى أنه أريد فى رسالته التى ستختم بها الرسالات أن تسلك طريق التلطف فى الدعوة ، ليذعن الناس اليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا تنتهى بآية عذاب كما انتهت الرسالات قبلها ، ولهذا لم تبتدىء بالتحدى كما ابتـــدأ غيرها من الرسالات ، وإنما أتى التحدى بعد ابتدائها بزمن سأبينه بعد ، وكان تحديا يناسب معجزة القرآن ، وليس فيه إنذار بآية عذاب كما كان التحدى فى غيره من المعجزات .

وكان من ذلك التلطف فى الدعوة أن أخذ النبى صلى الله عليه وسلم فى أول أمره يدعو فى السر ، ولا يدعو إلا من آنس منـه قبولاً لدعوته من أهله وأصـدقائه ، فآمنت به زوجه خديجة . وابن عمه على بن أبى طالب ، وكان غلاماً صغيراً قد تربى فى بيته ، وكذلك آمن به أقرب أصدقائه أبو بكر الصديق ، ولم يزل يتلطف فى دعوته ويدعو إليها سراً ، حتى آمن به نحو أربعين من قومه ، وكانوا يكتمون إسلامهم عن قومهم حتى لا يؤذوهم ، فإذا أراد أحدهم الصلاة ذهب

إلى بعض شعاب مكة فصلى به مستخفياً ، وكان لهم ناد يجتمعون به سرا ، وهو دار بأصل الصفا للأرقم بن أبن الأرقم ، وهو أحد من بادر من قومه إلى الإسلام ، وقد مكث يدعو سرا ثلاثا أو أربعاً من السنين ، فيتلطف بهذا فى دعوته ، ولا يتحدى بها قومه ، فلم يكن فى حاجة إلى معجزة يتحدى بها من يعارضه .

ثم أمر بعد هـذا أن ينتقل من السرية إلى الجهر ، فتلطف فى الدعوة الجهرية كما تلطف فى الدعوة السرية ، وابتـدأ فيها بعشيرته الأقربين من عبـد المطلب، فجمعهم وعرض عليهم أن يؤمنوا به ، فتكلموا كلاماً ليناً ، ولم يشـتد عليه إلا عمه أبو لهب ، فإنه قال لهم : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتوه ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقـال له أخوه أبو طالب : والله لنمنعنّـه ما بقينا . وقد وفى أبو طالب بمـا قال ، ولـكنه بقى على دينه ولم يؤمن به .

ولما جهر بالدعوة لم يطالبه قومه بآية عليها فى أول الأمر ، بل كانو يسخرون منه ويستهزئون به فى مجالسهم . فإذا مر عليهم يقولون: هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ! ولا يهتمون فى أمره بأكثر من ذلك ، استخفافا بدعوته ، واستهانة بأمرها ، لأنهم كانوا يظنونها سحابة صيف ، ولا يظنون أنه سيكون لها شأن بينهم .

فلما ثابر عليها وأخذ فى عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، ثارت حميّـة الجاهلية فى رؤوسهم ، وأخذتهم الغيرة على آلهتهم ، ولـكنهم مضوا على استخفافهم بأمره ، فلم يتوجهوا إليه أن يكف عنهم ، ولم يطالبوه بمعجزة يؤيد بها دعوته ، بل ذهبوا إلى عمه أبى طالب فشكوه اليه ، فردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ينتظرون ما يفعل معه .

ولـكن أباطالب لم يفعل معه شيئاً ، وتركه يمضى فى دعوته كما يريد ،

ولا يكف عن عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب يشكونه مرة أخرى ، وقالوا له : إما أن تكفه أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . فدعاه أبو طالب وقال له : يا ابن أخى ، إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا ، فأبق على نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن أن عمه خاذله ، فقال له : والله يا عمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه . ثم بكى وولىّ ، فقال له أبو طالب : أقبلْ يا ابن أخى . فأقبل عليه ، فقال له : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك .

فلما رأوا أبا طالب لا يجيبهم إلى منعه عن عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم أخذوا يؤذونه ويؤذون أصحابه ، فلقوا شيئاً كثيرا من أذاهم ، ولكنهم صبروا على ما لا قوة منهم ، وثبتوا على إيمانهم ، ولم يكف النبى صلى الله عليه وسلم عن عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، فاجتمعوا للشورى فى أمره ، فقال لهم عُتْبة بن ربيعة العَبْشمىّ : يا معشر قريش ، ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا علَّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ، ويكفُّ عنا ؟ فأجابوه الى ذلك ، فقام الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى المسجد ، فقال له : يا ابن أخى ، إنك منا حيث علمت ، من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قلْ يا أبا الوليد أسمع .

فقال عتبة : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا

الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثر منا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد مُلكا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئّى من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد فرغت يا أبا الوليد . فقال : نعم . فقال له : فاسمع منى . فقرأ عليه أول سورة فصلت (بسم الله الرحمن الرحيم ؛ حم ، تنزيلٌ من الرحمان الرحيم ، كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) الآيات إلى قوله (فإنْ أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذْ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومنْ خلفهم ألاّ تعبدوا إلا الله قالوا لوْ شاء ربّنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرونَ) .

فأمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، فلما رجع عتبة سألوه فقال لهم : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر . يامعشر قريش ، أطيعونى فاجعلوها الى خلوّا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأه فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فعزّه عزّكم . فقالوا له : لقد سحرك محمد . فقال لهم : هذا رأيى .

كل هذا وهم لا يطلبون منه معجزة يؤيد بها دعوته، لأنهم لم ييأسوا بعد من أمره ، فعرضوا عليه أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركونه فى عبادته ، فأنزل الله تعالى فى ذلك سورة الكافرون (قُلْ يا أيُّها الكافرون ، لا أعبدُ ما تعبدونَ ، ولا أنتمْ عابدونَ ما أعبدُ) السورة .

ثم طلبوا منه أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذمّ الأوثان والوعيد الشديد ، فيأتى بقرآن غيره أو يبدله . فأجابهم الله عن هذا فى الآية «١٥» من سورة يونس (قُلْ ما يَكونُ لى أنْ أبَدّلَهُ مِنْ تِلقاءِ نفسى إنْ أتَّبِعِ إلا ما يوحى إلىَّ إنى أخافُ إن عصيتُ ربى عذابَ يومٍ عظيمٍ) .

فلما رأوا أن هذه المطالب التى يعرضونها عليه لا تقبل منهم ، صاروا إلى تعجيزه بطلب المعجزات . وقد طلبوها متعنتين ، ولم يطلبوها ليؤمنوا بها ، وكان هذا بعد أن مضى زمن طويل على ابتداء بعثته إليهم، وأول ماورد من هذا فى الآية «٢٠٣» من سورة الأعراف (وإذا لم تأتهمْ بآيةٍ قالُوا لَوْلا اجتبيتَها قُلْ إنما أتّبع ما يوحى الىّ من ربى هذا بصَائرُ من ربّكمْ وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون) وسورة الأعراف هى السورة التاسعة والثلاثون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد عنهم ذلك فى الآيتين «٧و٨» من سورة الفرقان (وقالوا ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشى فى الأسواق لوْلا أنزلِ اليه ملكٌ فيكونَ مَعه نذيراً ، أو يُلْقَى اليه كنزٌ أو تكونُ له جنةٌ يأكل منها وقالَ الظالمونَ إنْ تَتبعونَ إلا رجلا مسحوراً) وسورة الفرقان هى السورة الثانية والأربعون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد عنهم ذلك فى الآية «١٣٣» من سورة طه (وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ من ربه أوَ لم تأتهم بينةُ ما فى الصحف الأولى) وسورة طه هى السورة الخامسة والأربعون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد عنهم ذلك فى الآيات «٤٨، ٤٩، ٥٠» من سورة القَصص (فلمّا جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا لولا أوتىَ مثل ما أوتى موسى أوَ لم

يكفروا بما أوتى موسى من قبلُ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرونَ ، قُلْ فَأْتُوا بكتاب مِنْ عندِ اللهِ هو أهدى مِنهما أتبِعْهُ إنْ كنتمْ صادقين ، فإنْ لم يستجيبُوا لك فاعلمْ أنَّما يَتَّبِعونَ أهواءهمْ ومَنْ أضلُّ مِمَّنِ اتَّبع هواهُ بغير هُدًى مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يهدى القومَ الظالمينَ) وسورة القصص هى السورة التاسعة والأربعون من السور التى نزلت بمكة ، وقد زادت هذه الآيات فيها على الآيات السابقة بأن فيها مايشبه أن يكون ابتداء تحدٍّ بالقرآن ، وهذا فى قوله (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وهو يعنى بذلك القرآن والتوراة .

ثم ورد بعد ذلك تحد صريح بالقرآن فى الآية «٨٨» من سورة الإسراء (قلْ لَئِنِ اجتمعت الإنس والجنُّ على أنْ يأْتُوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولوْ كانَ بعضهم لبعض ظهيراً) وسورة الإسراء هى السورة الخمسون من السور التى نزلت بمكة ، وكان نزولها فى حادثة الإسراء ، وكانت هذه الحادثة قبل الهجرة بسنة ، أى فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، فتكون هى السنة التى اتخذ فيها التحدى بالقرآن شكله الصريح ، وكان هذا بعد أن نزل منه خمسون سورة ، وهو قدر صالح للتحدى فى أول الأمر ، وقد تحداهم به كله ، ثم تدرج بعد هذا فى التحدى على ما يأتى :

فقد تحداهم بعد ذلك بسورة مثل القرآن فى الآية «٣٨» من سورة يونس (أمْ يقولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بسورةٍ مثلهِ وادعُوا مَنِ استطعتمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ) وسورة يونس هى السورة الواحدة والخمسون من السور التى نزلت بمكة .

ثم تحداهم بعد ذلك بعشر سور من القرآن فى الآية «١٣» من سورة هود (أمْ يقولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بعشر سُوَرٍ مثلهِ

مُفْتَرَيَات وادْعُوا مَن استطعتم مِن دُون الله إنْ كنتم صادقين)
وسورة هود هي السورة الثانية والخمسون من السور التي نزلت بمكة.

ثم عاد فتحداهم بالقرآن كله في الآيتين «٣٣، ٣٤» من سورة الطور (أمْ يقولونَ تقوَّلهُ بلْ لا يؤمنونَ، فلْيَأتُوا بحديث مثلِهِ إنْ كانُوا صادقينَ) وسورة الطور هي السورة السادسة والسبعون من السور التي نزلت بمكة. ثم تحداهم بعد ذلك بسورة واحدة من القرآن في الآيتين «٢٣، ٢٤» من سورة البقرة (وإنْ كنتمْ في ريب مِمَّا نزَّلنا على عبدنا فَأْتُوا بسورة منْ مثلهِ وادعوا شهداءكمْ منْ دُون الله إنْ كنتمْ صادقين، فإنْ لمْ تفعلُوا ولنْ تفعلوا فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها النّاسُ والحجارةُ أعدَّتْ للكافرينَ) وسورة البقرة هي أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة من مكة.

وكان هذا آخر تحد ورد في القرآن، وقد اختتم بمثل ما ابتدىء به من إعلان عجزهم صريحا عن الإتيان بمثل ما تحدُّوا به، ولكنهم لم يكفوا بعد هذا التحدى عن الطعن في القرآن، فكانوا مرة يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقاه من بعض الأعاجم من أهل الكتاب، كما قال تعالى في الآية «١٠٣» من سورة النحل (ولقـــدْ نعلمُ أنهمْ يقولونَ إنما يعلمهُ بشرٌ لسانُ الذي يُلحدونَ إليه أعجميٌّ وهذا لسان عربيٌّ مبينٌ) ومرة كانوا يدعون أنهم يقدرون أن يأتوا بمثله، كما قال تعالى في الآية «٣١» من سورة الأنفال (وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا قالوا قد سمعنا لوْ نشاءُ لقلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوَّلينَ) وهذا تبجح قبيح منهم، ولو كان ادعاؤهم صحيحا لأتوا به فعلا، ولكان هذا أسهل وسيلة لهم في الفصل في تلك الخصومة التي أعياهم أمرها، وقد بلغ من أمرهم في محاولة الفصل فيها أن عرضوا على النبي

صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الملك ، فلو كان ذلك فى قدرتهم لأتوا به فعلا ، ولفصلوا به فى تلك الخصومة من غير أن يكلفوا أنفسهم شططا .

وهنا أمر يعرف منه السر فى عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، وهو أمر لم يلتفت إليه أحد فى ذلك التحدى ، مع انه من أقطع الأدلة على أن عجزهم عنه كان عجزاً حقيقياً ، وهذا الأمر هو أن أعظم ما يمتاز به القرآن شيئان : أولها وأقواهما أنه كتاب هداية ورشد ، وثانيهما أنه فى أعلى أسلوب عربى ، وهذان الشيئان لابد أن يدخلا جميعاً فى التحدى بالقرآن ، وإن كان المشهور بين الناس أن التحدى به كان فى الشيء الثانى فقط ، مع أن التحدى به فى الهداية قد سبق التصريح به فى بعض صور التحدى ، وهذا فى قوله تعالى فى الآيتين السابقتين من سورة القصص (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) .

وإذا كانت الهداية لابد من دخولها فى التحدى بالقرآن ، وكان لها من التأثير فى إعجازه مثل ما كان لأسلوبه ، فإنها كانت تنقص أولئك المشركين ، لأنهم كانوا منغمسين فى الشرك والضلال ، وهذا باطل لا يمكنهم أن ينصروه بقوة بيانهم ولو بلغت ما بلغت. ولا شك أن أمر الأسلوب لم يكن يهمهم بقدر ما يهمهم نصر باطلهم . ولكنهم كانوا من هذا أمام أمر مستحيل كل الاستحالة ، ولا ينفعهم فيه ما امتازوا به من فصاحة وبلاغة ، لأن الباطل لا يمكن أن ينقلب حقاً ، والضلال لا يمكن أن ينقلب هداية ورشدا ، وهذه هى العقبة التى وقفت دونهم فى ذلك التحدى ، والصخرة التى عجزت أمامها حاولاتهم ، فوقفوا حيارى لا يدرون ما يصنعون ، ولا يجدون إلا أن يداروا عجزهم بالطعن فى القرآن ، فيقولوا فيه مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، ومرة إنه أساطير الأولين ، إلى غير هذا مما طعنوا به فيه .

ولا يعد هذا منهم إلا تهربا مما تحدوا به ، على أن طعنهم فى القرآن

بذلك أدعى إلى قيام الحجة عليهم ، لأنه لو كان سحراً أو شعراً أو من أساطير الأولين لكان من جنس كلامهم ، ولم يكن من عند الله تعالى ، فيكون الإتيان بمثله مما يدخل فى مقدورهم ، ولا يكون فيه ما يعجزهم .

ولما كان طعنهم على القرآن بذلك فيه حجة على عجزهم ، رأوا أن يصروا على ما كانوا يطلبونه من الآيات قبل تحديهم بالقرآن ، ليداروا بهذا عجزهم عنه ، كما حكى الله عنهم فى الآية «٣٢» من سورة الأنفال (وإذْ قالُوا اللهمَّ إنْ كانَ هذا هُوَ الحقَّ منْ عندكَ فأمطرْ علينا حجارةً منَ السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ) وقد نزلت هذه السورة بالمدينة بعد سورة البقرة ، وقد أجابهم الله عن هذا فى الآية التالية للآية السابقة بقوله (وما كانَ اللهُ ليعذبَهُمْ وأنت فيهمْ وما كانَ الله معذبَهُمْ وهم يستغفرونَ) فأخبرهم بأنه لا يريد أن يأخذهم بآيات العذاب كما أخذ الأمم قبلهم ، وإنما يريد أن يمهلهم ليؤمنوا كما آمن بعضهم ، واستغفر من ذنبه بالشرك وغيره من آثامهم ، ليختم بهم رسالته ، ويجعلهم آخر الأمم التى تحمل دعوته ، وكان من الواجب عليهم أن يقفوا عند التحدى بالآية التى اختيرت لهم ، وأن يحاولوا الإجابة عن تحديهم بها أو يقروا بعجزهم عنها ، وإذا كانت هذه الآية فى نظرهم أقل من آيات الرسل السابقين ، فإن هذا أيضا مما تنهض به الحجة عليهم ، لأنه مما يهون أمر تحديهم بها ، فيكون الواجب عليهم قبول هذا التحدى ، لا التهرب منه بطلب آيات أخرى .

ولو أنهم تأملوا قليــــلا لعرفوا أن هذه المعجزة هى أنسب المعجزات لهم ، لأن الله قد أراد بقاءهم لا هلاكهم ، فلا يناسبهم إلا هذه المعجزة التى يقترن التحدى فيها بمحاولة الإقناع بالدليل ، ولا يقتصر الأمر فيها على التحدى الذى لا يكون فيه إعذار وإمهال ، وما كان أجدرهم بعد هذا أن يكتفوا بها ، ولا يطلبوا آية أخرى غيرها .

متى ابتدأت معارضات القرآن

ذكر القرآن الكريم كل ما طعن به المشركون فيه، وكل ما طعنوا به فى النبى صلى الله عليه وسلم، فذكر طعنهم فى القرآن بأنه سحر، وبأنه شعر، وبأنه أساطير الأولين، وذكر طعنهم فى النبى صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر، وبأنه شاعر، وبأنه مجنون، إلى غير هذا من طعونهم فيه وفى القرآن الكريم، وقد ذكرها للرد عليها، وإظهار خطئهم فيها، ولم يذكر القرآن الكريم المعارضات التى حاول بعضهم أن يعارض القرآن بها، ويظهر قدرته على الإتيان بمثل بعض سوره، وقد يكون هذا لأن هذه المعارضات مخترعة على من نسبت إليهم من مُسَيْلمة وغيره، وقد يكون هذا لسبب آخر اقتضى عدم ذكر شىء عنها فى القرآن الكريم، كأن تكون هذه المعارضات لم تظهر فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، أو لم تظهر إلا قُبَيل وفاته، بعد أن ختم نزول القرآن، وتمت سوره على النحو الذى أراده الله لها.

والحقيقة أن قريشاً قوم النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أول من تُحُدِّىَ بالقرآن الكريم من العرب، فتهيبوا أن يعارضوه، وخافوا أن يظهر عجزهم إذا أرادوا معارضته، وقد كانوا أرقى العرب فى العلم والعرفان، وأعلاهم ذوقاً فى البلاغة والفصاحة، حتى إن الشعراء كانوا يتحاكمون إليهم فيما يقولونه من شعر، ويرجعون إليهم فى بيان منزلته فى القوة والضعف، فكانوا أعرف من غيرهم بأمر القرآن، حتى إن بعضهم كان يسمع بعض آياته فتأخذ عليه نفسه، وتملك عليه عقله، فيشهد لها بقوة التأثير، ويذعن لها إذعان الناقد البصير، ولكنه كان يغلبه عليه تعصبه لدينه، وتهيبه مخالفة قومه،

فلا يتبع هذا إيمانه بصدق النبى صلى الله عليه وسلم .

ولهذا تركوا معارضة القرآن باللسان ، وآثروا عليها معارضته بالسيف ، فاضطروا النبى صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالسيف كما قابلوه ، ولم يفعل هذا إلا بعد أن مكث بينهم فى مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم فيها بالموعظة الحسنة ، ثم يتحداهم بمعجزة هادئة لا تقطع عليهم طريق التروّى والتفكير ، بل تحاول أن تأخذهم إلى الإيمان فى هوادة ورفق ، فيأبون إلا أن يقابلوا اللين بالشدة ، وإلا أن يجعلوا الحكم للسيف فيما بينه وبينهم ، فقامت بسبب هذا حروب كثيرة صارت بالفريقين إلى المغالبة بالقوة ، وشغل المشركون بها عن تلك المعجزة التى تحدوا بها ، لأنهم أرادوا أن يفصلوا ما بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم بقوة السيف ، لا باستعمال فصاحتهم فى معارضة ما تحدّوا به ، ولا باستعمال عقولهم فى تأييد دينهم ، والدفاع عن آلهتهم ، لئلا يظهر فى هذا الميدان عجزهم .

وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم حياته بعد الهجرة إلى المدينة فى حربهم ، ولم يتم له النصر عليهم إلا فى السنة الثامنة من الهجرة ، وكان هذا قبل وفاته بنحو سنة ، وقد دخلوا فى دينه أفواجا بعد أن تمت الغلبة له عليهم ، لأنهم عرفوا أن قوة عقيدته هى التى غلبتهم فى ميدان القتال ، لا قوة السيف الذى شرعه فى وجوههم حين قابلوه بسيوفهم ، لأن سيوفه كانت أقل من سيوفهم عددا ، وكان أنصاره أقل عددا من أنصارهم ، وقد دخل غيرهم من العرب فى الإسلام تبعا لهم ، لأنهم كانوا أصحاب الزعامة الدينية بينهم ، فانتشر الإسلام فى جميع جزيرة العرب ، ودان له أهلها إلا قليلا منهم .

وهنا ظهر متنبّئان فى جهتين نائيتين من جزيرة العرب ، ولم يكن

لها دعوة دينية ظاهرة ، ولكنهما كانا فى الحقيقة طالبى ملك ، فأرادا أن ينازعا الإسلام فيما صار إليه من السيادة على جزيرة العرب ، وتوسلا إلى هذا بأن زعما أنهما نبيان يوحى اليهما من السماء ، كما يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لعلهما ينجحان فى أمرهما كما نجح فى أمره ، وقد ظهرا فى جهتين نائيتين من البادية يستغلان فيها جهل سكانها ، ويثيران فيها عصبية الجاهلية فيما بين قبائل اليمن وربيعة ومُضر .

فأما أحدهما فهو الأسود العَنْسى من اليمن ، وقد ظهر فيه ليثير عصبية قبائله على الإسلام الذى ظَهر بين عرب الشمال من مضر ، وكان يسمى عبهلة بن كعب ، ويقال له ذو الخمار ، لأنه كان يزعم أنه يأتيه ذو خمار ، وكان يُشعبِذ ويُرى الجهال الأعاجيب ، ويسبي بمنطقه قلب من يسمعه ، وكان قد أسلم قبل أن يدعى النبوة ، ثم ارتد وزعم ذلك الزعم ، فكاتبه أهل نَجران ، واتبعه بعض قبائل اليمن ، ومكث أربعة أشهر يعيث فساداً فى تلك الجهات ، ثم قتلته امرأته ، لأنه كان قد قتل أباها ، فقتلته به ، وكان هذا قبل وفاة النبي صلى الله عليه بيوم وليلة . وأما ثانيهما فهو مُسيلمة الكذاب من بنى حنيفة ، وهم من قبائل ربيعة ، وكانوا يسكنون اليمامة ، فظهر بينهم ليثير عصبيتهم أيضا على الاسلام الذى ظهر فى مضر ، وكان قد أسلم قبل أن يدعى النبوة ، ثم ارتد وادعى النبوة انفراداً ، ثم ادعاها مشاركة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد وفد عليه فى المدينة ، وطلب منه أن يقتسما الأمر بينهما ، فكذبه فيما ادعى من النبوة ، وأبى أن يجيبه إلى ما طلب منه ، فرجع إلى قومه ينتهز فرصة يشق فيها عصا الطاعة .

فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف بعده أبو بكر ، رآها فرصة سانحة لشق عصا الطاعة ، فخرج فى قومه بنى حنيفة ،

وأظهر بينهم دعوى النبوة ، وزعم أنه يوحى إليه من السماء ، وأتى فى هذا ببعض معارضات للقرآن ، فلم تظهر إلا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان هـذا هو السبب فى عدم ورود شىء من القرآن فى شأنها ، كما ورد فيما طعن به فيه ، وفيما طعن به فى النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن هذه المعارضات ما يأتى :

(١) يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقّى ما تنـقّين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدّرين .

(٢) ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وغشى .

(٣) ألم تر أن الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن إيلاجا ، ثم نخرج ما شـئنا إخراجا ، فينتجن لنا إنتاجا .

وقد تناول ثمامة بن أثال الحنفى نقد المعارضة الأولى عند ظهورها ، فذكر ابن سعد فى طبقاته (ج ٥ ص ٤٠١) أنه لما ظهر مسيلمة قام ثمامة بن أثال فى قومه فوعظهم وذكّرهم ، وقال : إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، وإن محمداً رسول الله لا نبى بعده ، ولا نبى يشرك معه ، وقرأ عليهم (حم ، تنزيلُ الكتاب من اللهِ العزيزِ العليم ، غافر الذنب وقابل التّوب شديد العقاب ، ذى الطّول لا إلهَ إلا هوَ إليه المصيرُ) هذا كلام الله ، أينَ هذا من ـ ياضفدع نقّى ما تنقين ، لا الشرابَ تمنعين ، ولا الماء تكدّرين ـ والله إنكم لترونَ أن هذا كلام ما خرج من إلٍّ .

فهو فى هذه المعارضة يخاطب الضفدع كأنها مخلوق يتعـالى على خالقه ، فيريد أن يضع من أمرها ، ويحط من شأنها ، وهى أهون من هذا كله ، ولا تستحق هذا الاهتمام بالتهوين من أمرها ، وهى مخلوق

ضعيف لا يتعالى ولا يتكبر ، فخطابه بما خاطبه به لا يطابق حاله ، والبلاغة لا تكون إلا حيث يطابق الكلام مقتضى الحال .

وأما المعارضة الثانية فهو لم يأت فيها من أسرار القدرة الإلهية ما يتعالى إدراكه على البشر ، بلى أتى من آثارها على الحبلى ما يعرفه كل إنسان ، ويدركه بحسه ، ولا يكاد يأخذ بنفسه ، وأين هذا من قوله تعالى فى الآية « ٥ » من سورة الحج (يأيُّها النَّاسُ إنْ كُنتمْ فى ريب مِنَ البعث فإنَّا خلقناكمْ من نُطفةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضغَةٍ مخلَّقة وغَير مخلقة لنبيّنَ لكم ونقرُّ فى الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسَمًّى ثم نخرجكم طفلاً ـ الآية) فهذا هو الإعجاز الإلهى ، وهذه هى الأسرار التى لا يصل إليها إنسان أمى كمحمد صلى الله عليه وسلم ، أما تلك المعارضة فتذكر أمراً ظاهراً لكل الناس ، ولا يتعالى إدراكه على أحد من البشر .

وأما المعارضة الثالثة فقد أتى فيها بما يأباه الخلق الكريم ، وذكر عبارات مستهجنة لا يصح التصريح بها ، وأين هى من قوله تعالى فى الآية « ١٨٩ » من سورة الأعراف (هو الَّذى خلقكمْ منْ نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجها ليسكنَ إليها) فما أسماها كناية لا يصل إليها أحد من البشر ، وإنما هو أدب الله الذى يسمو به على خلقه .

هذا ولم يلبث مسيلمة أن قتل فى خلافة أبى بكر ، ولم يترك أثرا يذكر بعده إلا تلك المعارضات التافهة للقرآن ، وهى معارضات استغل فيها جهل قبيلته بالبادية ، وقد عمد فيها إلى تقليد القرآن الكريم ، وهذا مما يؤخذ عليها أيضا ، لأن المعارضة لشىء لا بدّ أن تبتدع أسلوباً جديدا غير أسلوبه ، ولا يصح أن يكون أسلوبها تقليدا له ، لأنها لا تأتى فيه بجديد يحسب لها ، ويصل فى الإبداع الى مثل ما وصل إليه ما تعارضه .

معجزة مجهولة

من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

كم للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات لا تنحصر ، وتظهر في كل وقت لمن يتأمل ويتدبر ، وهذه ميزة معجزاته على معجزات غيره من الأنبياء ، لأن معجزاتهم كانت محسوسة يدركها الحس بسهولة ، أما معجزاته فتعلو على الحس ، لأن أفقها أعلى من أفقه ، فلا تدرك إلا بعد تأمل العقل ، وما أسمى المعجزات التي يختص العقل بإدراكها ، ولا يسمو الحس إلى تناولها .

وهذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، يغفل الناس عن أمرها ، وتمر عليهم كل يوم فلا يتنبهون لها ، وقد مضت عليها أجيال من الدهر تحقق من أمرها ، وتقوى من شأنها ، فلا يزيدها مرّ الأجيال إلا ثباتا ، ولا يفيدها توالى الحقب إلا قوة ، حتى آن التحدث الآن عنها ، لتظهر للناس جلية واضحة . لا يعتريها شيء من الشك ، ولا يخفيها عنهم شيء من اللبس . وكيف يعتريها شيء من ذلك وقد مضى عليها ست وستون وثلثمائة سنة بعد الألف[1] وهي قائمة تتحدى الزمن أن ينال منها ، وتتحدى أهله في الأرض من شرقها إلى غربها . ومن شمالها إلى جنوبها ، فيعجز الزمن وأهله عن تحديها ، وسيظل عاجزاً عن تحديها إلى ما شاء الله تعالى .

وقد وردت هذه المعجزة في آية من القرآن لا يشك في أمرها ، لأن آيات القرآن قد حفظت منذ نزولها في الصدور وغيرها مما

(١) كان هذا في زمن كتابة هذا البحث أي في سنة ١٣٦٦ هـ

حفظت فيه . ثم حفظت فى المصاحف عقيب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم تزد فيها بعد هذا آية ، ولم تنقص منهسا آية ، بل ظلت ثابتة لا يعتريها تغيير ولا تبديل . وهذه الآية التى وردت فيها تلك المعجزة هى الآية « ٤٠ » من سورة الأحزاب (ما كانَ محمدٌ أبَا أحدٍ مِنْ رجالكمْ ولكنْ رسول الله وخاتمَ النبيينَ وكانَ اللهُ بكلِّ شيء عليماً) .

فقد قطعت هذه الآية فى أمر النبوة بحكم لا سبيل للبشر أن يقطعوا به ، ولا يمكن عاقلا منهم أن يورط نفسه بمثل هذا الحكم فيه ، بل يرى من مصلحته أن يتركه للزمن ، وألا يقطعَ فيه بنفى أو إثبات ، لأنه لا يدخل فى علمه ، ولا يمكنه الجزم بشىء فيه ، فكيف إذا كان يدعى النبوة ، وهى أسمى مراتب البشر ، فلا يمكن صاحبها أن يرضى بالتورط فى مثل ذلك الحكم ، وأن يعرض نفسه للكذب إذا لم يصدق حكمه فى المستقبل ، لأن مثل هذا لا يرضاه عاقل من عامة الناس لنفسه ، فلا يمكن أن يرضاه لنفسه من يتسامى إلى مرتبة النبوة .

لقد ختم فى هذه الآية عهد النبوة ، وحكم بأنه لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يجرؤ بشر على الحكم فى مثل هذا وهو من أمر الغيب ؟ وهل يمكن أن يحكم بهذا محمد صلى الله عليه وسلم من نفسه ؟ وقد مضى قبله آلاف لا تحصى من السنين ، يتوالى فيها الأنبياء نبياً بعد نبى ، من آدم الى شيث ، الى إدريس ، الى نوح ، الى إبراهيم والى إسماعيل وإسحاق ، الى يعقوب ، الى يوسف ، الى موسى وهارون ، الى داود ، الى سليمان ، الى عيسى بن مريم ، وبين هؤلاء الأنبياء أنبياء لا يحصون عدا ، لأن هناك من الأنبياء من لم يرد الينا حديث عنهم ، كما قال تعالى فى الآية «١٦٤» من سورة النساء

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلا لم نقصصهم عليك وكلمَ اللهُ موسى تكليماً) .

وكان كل نبي من هؤلاء الأنبياء يبشر بمن يأتى بعده منهم ، ويأمر أتباعه بانتظار بعثته ، ويحثهم على الإيمان به حين ظهوره ، وقد وردت بهذا بشارات كثيرة فى الكتب المنزلة على أولئك الأنبياء ، فوردت فى صحف إبراهيم ، ووردت فى توراة موسى ، ووردت فى زبور داود ، ووردت فى إنجيل عيسى ، ووردت فى غير هذا من الكتب المنزلة على الأنبياء .

فلو كان الأمر فى ذلك الحكم لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان فى كل ماسبق مايدعوه إلى العدول عنه ، لأنه يخالف ماتوالت عليه الأجيال قبله ، ويشذ عما تعاقبت عليه السنون من بدء الخليقة إلى عهده ، والبشر فى أحكامهم لا يخرجون على حكم الأجيال قبلهم ، ولا يشذون عما جرت عليه سُنَّة الله من قديم الزمن ، ومحمد صلى الله عليه وسلم من البشر ، فكان عليه بمقتضى هذا أن يجرى على سنة الأنبياء قبله ، فلا يدعى أنه خاتم الأنبياء ، بل يبشر بنبى يأتى بعده كما بشر الأنبياء قبله ، ليروج بهذا أمره بين الناس ، لأنه يستنّ فيه سُنَّة من قبله من الأنبياء ، ولا يشذ فيه عنهم ، فيكون هذا أدعى إلى أن يرى الناس أنه نبي مثلهم ، ولا سيما أن للناس شغفاً بالبشارات والتنبؤات ، وميلا إلى تصديق من يأتى بها من الكهان ونحوهم .

فلا يمكن أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى ادعى أنه خاتم الأنبياء ، وإنما هى من الله الذى يملك أمر النبوة ، فينزل بها ملائكته من السماء إلى الأرض إذا شاء ، ويقطعها إذا شاء قطعها ، فهو الذى أنزل هذه الآية بذلك الحكم ، فحكم فيها بأن محمداً صلى الله

عليه وسلم خاتم النبيين ، وبأن شريعته خاتمة الشرائع ، وقامت بهذا معجزة تتحدى الزمن وأهله ، فلا يجرؤ أحد على تحديها ، ولا يحاول مخلوق نقضها ، وقد مضى عليها الآن ست وستون وثلثمائة سنة بعد الألف ، يتجدد فيها ذلك التحدى سنة بعد سنة ، وجيلا بعد جيل ، فلا يزيد هذا تلك المعجزة إلا قوة فى تحديها ، وصدقا فى حكمها، لأن مثل هذه المدة الطويلة يكفى لظهور كثير من الأنبياء ، وقد كان الأنبياء قبلها يتوالى ظهورهم . بل كان بعضهم يعاصر بعضا ، فما بالهم قد انقطعوا فى هذه المدة الطويلة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وما بال الزمن قد صار لا يتطلع إلى نبوة كما كان يتطلع ؟ وما بال أهله قد صاروا لا ينتظرون نبوة كما كانوا ينتظرون ؟

لقد فتح فى الإسلام باب الاجتهاد بعد قفل باب النبوة ، وجعل العلم فيه هو الوسيلة إلى الاجتهاد . فأمر الناس فيه بطلب العلم والحكمة ، ولم يأت مثل هذا فى دين قبله . فصار العلم فيه هو الوسيلة إلى الإصلاح بعد الدين ، لأن الدين هو الأساس ، والعلم يقيم بناءه فى الإصلاح على أساسه . فاكتفى الناس بالعلم فى إصلاح أحوالهم، وانقطع أملهم فى نبوة تظهر لهم ، ولم يختص المسلمون بانقطاع هذا الأمل فى النبوة، بل صار انقطاع الأمل فيها طابع هذا العصر ، ولا فرق الآن فى هذا بين المسلمين وغيرهم ، وإنه لأقوى دليل على صدق تلك المعجزة .

ولا أنكر أنه يوجد قليل من الناس ينتظر نبوة جديدة ، وقد مضى زمن طويل على انتظارهم ، حتى صرنا إلى عصر انقطع أمل الناس فيه من تلك النبوة ، وصارت تلك القلة فيه كقطرة فى بحر لا يعبأ بها، ولا يقام وزن لانتظارها نبوة جديدة ، لأن الأمر قد استقر الآن على الاكتفاء بالنبوات السابقة ، فعكف أهل كل دين على دينهم ،

وقاموا فى حدود شرائعهم يتولون إصلاح أحوالهم بأنفسهم ، ولا ينتظرون فى هذا وحيا من السماء ، ولا يترقبون نبيا يبعث إليهم.

ولا أنكر أيضا أن الأسود العَنْسىّ ادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى هذا يتحدى دعواه أنه خاتم النبيين ، ولكنه فشل فى ادعائه ، وقتلته امرأته وهى أولى الناس بتصديقه ، وكان قد قتل أباها فقتلته به .

كما لا أنكر أن مُسَيْلمة ادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً ، ولكنه فشل فى دعواه كما فشل الأسود العنسى ، فقتل فى خلافة أبى بكر ، وبطل أمره كأن لم يكن .

وإنى أقولها الآن أقوى كلمة: إنه إذا كان لنا أن نسكت عن التحدى بتلك المعجزة عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا بعشر سنين أو مائة سنة أو خمسمائة سنة ، فإنه لا يصح لنا الآن أن نسكت عن ذلك التحدى بتلك المعجزة بعد أن مضى عليها ست وستون وثلثمائة سنة بعد الألف ، وسيمر عليها مثل هذا وأكثر منه وهى قائمة تتحدى الزمن ، وتتحدى أهله فى سائر أنحاء الأرض .

وإنها لمعجزة لها أكبر شأن فى تاريخ البشر ، لأنها فصلت فيه بين عهدين ، فقطعت عهدا توالى الأنبياء فيه منذ الخليقة على القيام بإصلاح حال الأرض ، وتولى الاصلاح فيه وحى السماء . وأقامت عهدا انقطع فيه ذلك الوحى من الأرض ، وترك فيه أمر البشر لأنفسهم ، بعد أن أدى الوحى رسالته بينهم .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يقوم به بشر ، وإنما هو حكم الله تعالى فى تاريخ الأرض ، ومعجزة خطيرة من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم .

إسلام قريش عام الفتح

بالاختيار لا بالسيف

إن مما يثير أوربا وأمريكا على الإسلام فى عصرنا جهلهما بكثير من أصوله الحقة العادلة ، ومن هـذا أن أهلهما يظنون أن الإسلام لم يقم إلا بالسيف ، فإذا عاد ثانياً إلى قوته استعمل السيف ثانياً فى حمل الناس على الإيمان به ، وأخذمن لا يؤمن به بالظلم والعسف ، فيعيش العالم فى جو من الإرهاب ، ويحرم من الحرية الدينية التى يتمتع الآن بها ، وبسبب هـذا الظن الخاطىء يعملون على إضعاف المسلمين فى سائر أنحاء الأرض ، حتى لا تعود لهم دول قوية كالدول التى كانت لهم قبل ضعفهم ، ومن أثر هـذا الظن الخاطىء ما عمدت إليه بعض المجلات الأمريكية فى عام ١٩٤٨م من تصوير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى صورة ترمز إلى ما يظنونه فى دعوته ، وهى صورة زنجى راكب على فرس وفى يده سيف يهدد العالم به .

وقد يعذر أهل أوربا وأمريكا فى هذا الظن الخاطئ فى الاسلام، لأنها لا تجد من المسلمين من يبلغه إليها على حقيقته ، ويبين لها كيف قامت الحروب التى وقعت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنها لم تكن لإكراه الناس على الاسلام ، وإنما كانت لأجل تمكين أهله من حريتهم الدينية ، ودفع من يريد فتنتهم فى دينهم وصرفهم عنه بالقوة ، فكانت حرباً للدفاع عن العقيدة ولتأييد الحرية الدينية ، ولم تكن للاعتداء على هذه الحرية ، أو لاكراه الناس على الاسلام ، لأن الإسلام نادى بها دعوة

صريحة أنه لا إكراه في الدين ، كما قال تعالى في الآية - ٢٦٥ - من سورة البقرة (لا إكراهَ في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي فمن يكفرْ بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعروةِ الوثقى لا انفصامَ لها والله سميع عليم) كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بهذه الصورة التي تهدد ســـلام العالم ، لأنه لم يدع أحد إلى السلام كما دعا إليه ، ولهذا اختار لدينه اسم الاسلام ، وهو مأخوذ من مادة السلام ، ولهذا أيضا اختار اسم السلام للتحية المعتادة بين الناس في تلاقيهم كل وقت ، فلا يلقى مسلم شخصا إلا ألقى عليه هذه التحية الكريمة - السلام عليكم - ليكون اسم السلام شعارا للمسلمين في غدوهم ورواحهم ، وفي كل وقت يمر بهم ، ويكون أكثر الأسماء شيوعا بينهم ، ليعيشوا فيما بينهم في صفاء ، ويعيشوا فيما بينهم وبين غيرهم في سلام ، ولا يضمروا لأحد شرا ، ولا يبطنوا له سوءا ، وقد أتى بها القرآن دعوة عامة صريحة إلى السلام في الآية - ٢٠٨ - من سورة البقرة (يا أيُّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

وإنه ليكون أهل أوروبا وأمريكا أشد عذرا في ذلك الظن الخاطيء إذا وجدوا من بعض المسلمين من يظن هذا مثلهم ، ويرى أن الاسلام لم يقم إلا بالسيف ، وأن هذا هو سبيله في كل وقت ، وأن المسلمين يجب عليهم أن يقوموا بالهجوم على أعدائهم في كل عام ، فإذا رأى هذا أهل أوروبا وأمريكا ازدادوا ضغنا وحقداً على الاسلام ، وازدادوا خوفا منه إذا عادت إليه سطوته ، فتتفق كلمتهم على التشديد على المسلمين ، ويعملون على عدم تمكينهم من استعادة قوتهم ، لئلا يستعملوها في الدعوة إلا دينهم ، ويمحوا بها

مايتمتع العالم الآن به من حرية دينية ، وبهذا يضر الجهلة من المسلمين بدينهم أشد ضرر ، ويؤلبون عليه أهل أوربا وأمريكا وهم أصحاب القوة والسلطان في عصرنا ، وليس هذا جهلا بالدين فقط ، بل هو جهل شديد بالسياسة وأصولها ، وجهل بما يلزم لمصلحة الاسلام فيها ، ونحن لا نقول هذا جبنا وخوفا على الاسلام ، لأنه دين الشجاعة الحقة ، والقوة العادلة ، فلا يهمه أن يتألب عليه أهل الأرض جميعا ، أو يتفق عليه الناس كلهم ، لا أهل أوربا وأمريكا وحدهم ، ولو أنه قام بالسيف حقا لما أهمنا أن يتألب أحد علينا بسببه ، ولكن الحقيقة أن الاسلام لم يقم بالسيف ، وإنما قام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال تعالى في الآية — ١٢٥ — من سورة النحل (أدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلْهم بالتي هي أحسن) فإذا خالفنا هـذه الحقيقة لم يقتصر ضررها على تأليب أهل أوروبا وأمريكا علينا ، بل اتخذ هذا حجة على الاسلام في عصر يقدس حرية الرأي والعقيدة ، ولا يبيح استعمال القوة في الدعوة إلى عقيدة من العقائد ، لأن العقيدة اعتقاد بالقلب وإذعان به ، وسبيل هذا الإقناع بالدليل ، لا أخذ الناس إليه بالقوة .

وقد دعاني هذا كله إلى اختيار كتابة في موضوع إسلام قريش عام الفتح ، لأنه قد يظهر لبعض الناس أنه قام بالسيف ، ولم يكن عن طواعية واختيار منهم ، وإســـلام قريش كان نقطة تحول في تاريخ الإسلام ، لأن العرب كانوا ينتظرون إسلامها لزعامتها الدينية بينهم ، فلما أسلمت دخلوا في الإسلام أفواجا ، ولم يمض إلا قليل حتى شمل الإسلام بلاد العرب جميعا ، فإذا كان إسلامها قد قام بالسيف كان إسلام العرب قد قام به أيضا .

وإنما كان إسلام قريش بحيث يظهر لبعض الناس أنه قام بالسيف ، لأن قريشا كانت على رأس القائمين بمناوأة الاسلام ، وقد أقامت على مناوأتها له عشرين سنة ، اضطهدته فيها وهو ضعيف بينها فى مكة ، ثم تولت حربه حينما صار له قوة بالمدينة ، إلى أن انتصر عليها عام الفتح بقوة السيف ، فبادر أهلها إلى الدخول فيه ، وتركوا عبادة الأصنام التى أصروا عليها فى تلك السنين.

فهنا قد يظن بعض الناس أن قريشا لم تسلم إلا بقوة السيف ، وأنه لولم تفتح عليها مكة لبقيت على شركها ، ولم تدخل فى الاسلام دفعة واحدة كما دخلت ، كأنها كانت منه على ميعاد بهذا الفتح.

ولابد لتفنيد هذا الظن الخاطىء من الرجوع الى الآيات التى أذن فيها للمسلمين بقتال قريش ، لأنها هى التى تبين لنا حقيقة الغاية من هذا القتال ، فإذا كانت لإدخال قريش فى الاسلام صح ذلك الظن ، وإذا لم تكن لأجل إدخالها فيه كان ذلك الظن خطأ.

لقد أذن للمسلمين بقتال قريش فى الآيتين — ٣٩ ، ٤٠ — من سورة الحج (أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجُوا من ديارهم بغير حقٍ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دفعُ الله الناس بعضَهم ببعض لهدِّمت صوامعُ وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسمُ الله كثيراً ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقوىٌّ عزيز) والآيتان صريحتان أن قتال قريش لم يكن لأجل إدخالها فى الاسلام ، وإنما كان لدفع ظلمها عن المسلمين ، وتمكينهم من الحرية الدينية التى حرمتهم منها ، إذ قامت باضطهادهم لتكرههم على ترك دينهم ، ثم أخرجتهم من ديارهم بغير حق حين ثبتوا على هذا الدين ، ولم

يخضعوا لاضطهادها وتعذيبها، ثم آذت من قعد به الضعف منهم عن الهجرة إلى المدينة، فأقام بينها فى مكة.

فلما أذن للمسلمين بقتال قريش قاموا بها حربا يريدون منها الدفاع عن عقيدتهم، وهم فى هذا يخالفون قريشا التى كانت تقصد من حربها إرجاعهم عن دينهم، وسلبهم حريتهم فى اختيار الدين الذى تطمئن اليه نفوسهم، فلم يدخل فى غرضهم من حربها أن يكرهوها على الاسلام، كما دخل فى غرضها أن تكرههم على الرجوع عنه.

وقد انتهت هذه الحرب بين الفريقين بصلح الحُدَيبية فى السنة السادسة من الهجرة، وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى سعى فى هذا الصلح، ولم يكن سعيه فيه عن عجز منه، وإنما كان إشفاقا عليها أن تفنيها الحرب، ومطاولة لها إلى أن يهديها الله إلى الاسلام، وقد تساهل فى شروط ذلك الصلح ماتساهل لهذا الغرض الكريم، حتى كان تساهله سبباً فى غضب كثير من أصحابه، ولكنه لم يزل بهم حتى أرضاهم.

ثم كان منها أن نقضت هذا الصلح فى السنة الثامنة من الهجرة، فسار النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السنة إلى حربها، لا ليدخلها فى دين الاسلام، وإنما ليعاقبها على قتال حلفائه من خزاعة، ويطهر الكعبة من عبادة الأصنام، ويرجعها إلى ماكانت عليه فى عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قبلة خالصة للتوحيد وأهله، ومثابة للناس وأمنا، فلا تستبد قريش بها، ولا تمنع المسلمين من الحج اليها، وهم أولى بها منها، لأنها قامت على أساس التوحيد الذى يدعو المسلمون اليه، ولم تقم على أساس عبادة الأصنام التى تدعو قريش اليها.

وقد ظهر آثر ذلك واضحا حين ظهر عجز قريش عن دفع جيش

المسلمين ، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادى فيها بالأمان ، فلم يجعل الدخول فى الإسلام شرطاً لأمانها ، ولم يطلب فيه منها أن تؤمن به ، بل جعله أمانا مطلقا من غير قيد ولا شرط ، ونادى مناديه ـ من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ـ ولم يذكر فى ندائه أن من أسلم فهو آمن ، لأنه يريد إيمانا خالصا عن طواعية واختيار ، ولا شائبة فيه لقهر وإكراه.

ثم ظهر أثر ذلك واضحا أيضا حين جمعهم بعد إسلامهم وقال لهم : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال لهم : إذهبوا فأنتم الطلقاء . فعفا عنهم عفوا مطلقا من غير قيد ولا شرط أيضا ، ولو كان قتاله من أجل إسلامهم لاشترطه فى العفو عنهم ، لأن من يقاتل لغاية يحرص عليها عند النصر ، ولا يعفو عمن انتصر عليه إلا إذا وصل إليها.

ثم ظهر أثر ذلك واضحا أيضا بعد ذلك العفو ، فقد أخذ بعضهم بروعة ذلك الفتح وعظمته فأسلم ، وأخذ بعضهم بكرم ذلك العفو فأسلم ، وبقى عدد قليل لم يؤخذ بروعة الفتح ولا بكرم العفو فلم يسلم ، وكان عدده يبلغ بضعا وثمانين رجلا ، فبقوا على شركهم ليكون فيه أكبر دليل على أن غيرهم أسلم باختياره ، ولم يؤخذ بقوة السيف الذى حصل به فتح مكة ، وقد بقى هذا العدد على شركه إلى أن أسلم طائعا فى غزوة حُنين ، وكان قد خرج فيها يقاتل فى صف المسلمين ، فهداه الله بعد الانتهاء منها إلى الإسلام ؟

الوحدة الإسلامية

ألقى صاحب السماحة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم الزنجانى كبير مجتهدى الشيعة بفارس ، ورئيس مجلسهم الأعلى ، محاضرة بدار جمعية الشبان المسلمين بمصر ، فى الدعوة الى الوحدة الإسلامية ، رأى فيها أن هذه الوحدة لاتتم إلا بإزالة مابين الطوائف الإسلامية من فروق فى العقائد ، وتقريب شقة الخلاف بينها حتى تنحصر فى الفروع وحدها ، وذكر أن الخلاف بين هذه الطوائف فى العقائد خلاف لفظى ، فمن السهل إزالته ، وجمع كلمة الأمة به

ولاشك أن السعى فى الوحدة الاسلامية مما يجب على كل مسلم فى عصرنا ، ولكن الطريق الذى رآه الأستاذ الزنجانى صعب التحقيق ، لأن الخلاف بين الطوائف الإسلامية ليس خلافا لفظيا كما ذهب اليه ، وإنما هو خلاف حقيقى فى بعض الأصول والفروع ، ومن هذا ماوقع من الخلاف بين أهل السنة والشيعة فى عصمة الأئمة ، فهو خلاف حقيقى فى أصل من أصول العقائد ، لأن أهل السنة يرون أن العصمة خاصة بالأنبياء عليهم السلام ، والشيعة يرون أنها لاتختص بالأنبياء ، ويعتقدون أن الأئمة من أهل البيت معصومون أيضا ، وقد اعترض بهذا على الأستاذ الزنجانى وهو يلقى محاضرته ، فأجاب بان عصمة الأئمة عند الشيعة تختلف عن عصمة الأنبياء ، لأنها فى الأئمة بمعنى العدل والثقة واستبعاد وقوع الخطأ منهم ، أما عصمة الأنبياء فهى بمعناها الحقيقى ، لأنهم معصومون عن الخطأ قطعا ، والفرق ظاهر بين المعنيين ، وإنى

أرى أنه لوكان ذلك معنى عصمة الأئمة عند الشيعة لما صح تسميتها عصمة ، ولما كان هناك فرق بين هؤلاء الأئمة وغيرهم من أصحاب العدالة والثقة ، ومثل هذا لايمكن أن يذهب اليه الشيعة .

ومن ذلك أيضا ماوقع بين أهل السنة والشيعة فى خلافة أبى بكر وعمر ، فهو خلاف حقيقى أيضا ، وكذلك الخلاف بينهم فى مسألة الصفات وكثير من مسائل علم الكلام ، لأن الشيعة يوافقون فى كثير منها المعتزلة ، ويخالفون أهل السنة .

فلا يصح مع هذا كله أن نطمع فى بناء الوحدة الإسلامية على أساس إزالة ذلك الخلاف ، لأنه خلاف حقيقى لا لفظى ، والذى أراه أن يقوم بناء هذه الوحدة على أساس التسوية بين الخلاف فى الأصول والخلاف فى الفروع ، فنقبل الخلاف الأول ويتسع له صدرنا ، كما نقبل الخلاف الثانى ويتسع له صدرنا ، حتى يكون الخلاف بين أهل السنة والشيعة فى العقائد كالخلاف بين الشافعية والحنفية من أهل السنة فى الفروع ، وكذلك الخلاف بين بقية الطوائف فى العقائد ، على أن أهل السنة اختلفوا أيضا فى العقائد ، وانقسموا فيها الى سلف وخلف ، وانقسم الخلف منهم الى أشعرية وماتريدية ، فلم يفرق هذا الخلاف بينهم ، بل كان شأنه بينهم كشأن خلافهم فى الفروع الى حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية ، فيجب أن يكون هذا أيضاً شأن الخلاف بين أهل السنة الشيعة وغيرهم من الطوائف المختلفة فى العقائد ، فإذا ذهب الشيعة مثلا الى عصمة الأئمة فليكن لهم فى هذا رأيهم ، ماداموا لايذهبون الى أنهم أنبياء ، لأن مثل هذا هو الذى يخالف صريح الإسلام ، واذا ذهب الشيعة أيضاً الى أن علياً أحق بالخلافة من أبى بكر

وعمر ، فليكن لهم فى هذا رأيهم ، وليكن لنا رأينا فى صحة خلافتهما ، ولا يصح ان يكون مثل هذا سبباً فى التفريق بيننا ، واضطغان نفوس طائفة منا على طائفة

فإذا قام الجدال بيننا فى العقائد قام على الإقناع بالدليل ، فإذا وصلنا به إلى الاتفاق على عقيدة أخذنا بها جميعا ، وإذا لم يمكن أن نصل به إلى الاتفاق على عقيدة اختلفنا فيها بما عند كل طائفة من دليل عليها ، وعذر بعضنا بعضا فيها ، لأن الدليل لم يصل فيها إلى الوضوح الذى يؤدى إلى الاتفاق عليها

ولنبعد فى جد الناعن التعصب للرأى ، والطعن فى الدين ، والرمى بالكفر ، ولنجعل الخلاف فى الرأى سبب تواصل ، لا وسيلة تقاطع ، وليقم الخلاف بيننا على أنه خلاف بين أخوين فى الدين ، تجمعهما كلمة الإسلام ، وتظلهما راية الحنيفة السمحة ، وقد عد الإسلام الخلاف فى الرأى سنة من سنن الكون ، فقال تعالى فى الآية — ١١٨ — من سورة هود (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدةً ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإذا كان هذا شأن الخلاف فى الاسلام كان لله تعالى حكمة فى أمره ، وكان لنا مصلحة فيه ، كما هو الشأن فى كل ما سنه الله لنا ، وقد أبيح الاجتهاد فى الاسلام أيضا ، والاجتهاد يستلزم الخلاف فى الرأى ، وأن يكون أحد المختلفين مصيبا والآخر مخطئا ، وقد جعل الاسلام لمن يجتهد ويصيب أجرين ، ولمن يجتهد ويخطىء أجرا واحدا ، والدين الذى يصل إلى الإثابة على الخطأ فى الاجتهاد لا يصح أن يكون الخلاف فيه مصدر تشاحن ، بل يجب أن يكون سبب تواصل وتراحم ، ولم يفرق الاسلام فى إباحة الاجتهاد بين أصول وفروع ، بل أطلق النبى

صلى الله عليه وسلم الأمر فى هذا إطلاقا ، وذكر أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطا فله أجر واحد ، ولم يقيد هذا بفروع أو أصول .

وهذا هو الأساس الصحيح لقيام الوحدة الاسلامية ، فلنتخذه وسيلة إليها ، ولنقبر ذلك الماضى القائم على التدابر والتقاطع ، ولنقبر معه تلك الكتب المتدابرة المتقاطعة فى العقائد ، وهى الكتب التى يدرسها أهل السنة فى الجامع الأزهر بمصر ، والكتب التى يدرسها الشيعة فى معهد النجف بالعراق ، ولنأخذ فى التقريب بين هاتين الجامعتين العظيمتين ، ومن هذا التقريب أن يدرس فقه الشيعة بالجامع الأزهر ، وفقه أهل السنة بمعهد النجف ، ويتبادل فى هذا الأساتذة بين الجامعتين ، ليتم التعارف بيننا فيهما ، وتتحقق تلك الوحدة المطلوبة فى عصرنا[1] .

---

(١) نشر هذا التعقيب على تلك المحاضرة بالعدد (١٧٩) من مجلة الرسالة ، فترجم الى الأردية بجريدة هندية ، وأيده أستاذ من معهد النجف بالعدد (١٨٨) من مجلة الرسالة

أبو هريرة

ألف الأستاذ الفاضل عبد الحسين الموسوى العاملى كتابا اسمه (أبو هريرة) وهو عالم من علماء الشيعة ، وقد أراد أن يدرس أبا هريرة رضى الله عنه فى هذا الكتاب درسا علميا بريئا من التعصب المذهبى ، ولكنه لم يكد يبتدىء كتابه حتى وقع فيما فر منه ، وذكر فى أول صفحة منه أنه لا ينظر إلى أبى هريرة فى ذاته ، وإنما ينظر إلى تقديس أهل السنة له ، لأنهم قدسوه بناء على مذهبهم فى تعديل كل صحابى ، واعتقاد أن الصحبة عصمة لا يمس صاحبها بجرح وإن فعل ما فعل ، ثم ذكر أن الصحبة فضيلة جليلة ولكنها غير عاصمة ، وأن الصحابة كان فيهم العدول والأولياء والأصفياء والصديقون ، وكان فيهم مجهول الحال ، وكان فيهم المنافقون من أهل الجرائم والعظائم ، كما قال تعالى فى الآية — ١٠١ — من سورة التوبة (ومن أهل المدينةِ مردُوا على النفاق لا تعلمهمْ نحنُ نعلمهم) فعدولهم حجة ، ومجهول الحال نتبين أمره ، وأهل الجرائم لا وزن لهم ولا لحديثهم ، وقد درس أبا هريرة على ذلك الأساس ، ليثبت أنه كان منافقاً كذاباً مجرماً ، فيكون عنده من الفريق الثالث ممن يطلق عليه اسم الصحابة ، ولا يكون هناك وزن له ولا لحديثه .

ولا شك أن هذا غلو فى أمر أبى هريرة كغلو الشيعة فى تشيعهم لأهل البيت ، لأن الغلو يدعو إلى الغلو ، كما يدعو الاعتدال إلى الاعتدال ، ونحن أهل السنة شيعة أيضا لعلى وأهل بيته ، ولكننا

شيعة معتدلة نسلك فى تشيعنا لهم مذهبا وسطا ، فلا نغالى فيهم كما تغالى الشيعة ، ولا نكرههم كما تكرههم الخوارج .

وكذلك نسلك مذهبا وسطا فى أمر الصحابة ، فلا نغالى فى بغضهم حتى نرمى من مات النبى صلى الله عليه وسلم راضيا عنهم بأنهم منافقون مجرمون ، ولا نغالى فى حبهم حتى نذهب إلى أنهم معصومون من الجرح ، لأن العصمة عندنا لا تكون إلا مع الوحى والنبوة ، والصحابة ليسوا بأنبياء ولا يوحى إليهم ، والشيعة هم الذين يعتقدون فى أئمتهم هذا الاعتقاد ، فيذهبون إلى عصمة كل إمام من أهل البيت .

فالصحابة عندنا رجال كسائر الرجال ، يجوز عليهم الخطأ كما يجوز الصواب ، وتجوز عليهم المعصية كما تجوز عليهم الطاعة ، ولهذا كان بعض المجتهدين من أهل السنة إذا خالفهم فى حكم من الأحكام قال : هم رجال ونحن رجال . فالصحابى قد يخطىء فى اجتهاده ، ولكنه يعذر فيه كما يعذر كل مجتهد إذا أخطأ ، والصحابى يخونه سمعه فيخطىء فى حديثه ، ولكن هذا لا يحط من قدره ، لأن الخطأ جائز على كل البشر ، ولا فرق فى هذا عند أهل السنة بين أبى هريرة وغيره من الصحابة

فلا يصح حينئذ أن نطعن فى دين أبى هريرة ولا غيره من الصحابة الذين مات النبى صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، ولا يصح أن نرمى واحداً منهم إذا أخطأ فى حديثه أو اجتهاده بأنه كان منافقاً مجرما ، لأن إكرامنا لمن رضى النبى صلى الله عنه إكرام له ، وتصويب لما كان يضعه فيه من ثقته به ، وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه من ألصق الصحابة به فى حياته ، فيهمنا أن يكون رضاه عنه فى موضعه ، وألا يكون رضاه عن منافق كان يخدعه فى دينه ، وهذا لا يمنعنا من تخطئة

أبى هريرة فيما يثبت أنه أخطأ فيه ، ولكن مع صون اللسان عن السب والشتم والطعن فى الدين ، لأن هذا ليس فى شىء من النقد الصحيح ، وليس فى شىء من أدب الجدال فى الدين والعلم ، وقد نهانا الله تعالى عن ذلك فى جدالنا لمن يخالفنا فى الدين ، فقال تعالى فى الآية -١٠٨- من سورة الأنعام (ولا تسبُّوا الذينَ يدعون مِنْ دُون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم) وقال تعالى فى الآية -٤٦- من سورة العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتى هى أحسنُ) ولا شك أن المسلم أحق بمراعاة هذا الأدب فى الجدال مع أخيه المسلم.

وقد ثبت أنه كان هناك رواة يضعون الحديث على أبى هريرة ، كإسحاق ابن نجيح الملطى ، وعثمان بن خالد العثمانى . وابنه محمد ، وغيرهم ، فلنتجه اليهم أولا فيما يؤخذ على أبى هريرة ، لأن المؤاخذة قد تكون عليهم لا عليه.

وهذا حديث أخذه صاحب الكتاب على أبى هريرة وجعله سببا لرميه بالنفاق والكفر ، فقد روى عن أبى هريرة أنه دخل على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة عثمان بن عفان وبيدها مشط ، فقالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندى آنفا رجلت شعره ، فقال لى : كيف تجدين أبا عبد الله — يعنى عثمان — قلت: بخير . قال : أكرميه ، فإنه من أشبه أصحابى بى خلقا.

فذكر صاحب الكتاب أن هذا حديث باطل ، لأن رقية ماتت فى غزوة بدر ، وأبو هريرة إنما أسلم بعد فتح خيبر ، وقد بادر صاحب الكتاب لحكم بأن أبا هريرة هو الذى اختلق هذا الحديث، وبهذا يكون عنده كذابا منافقا مجرما، مع أنه كان يجب عليه أن ينظر فيمن رواه عنه أولا

وهذا الحديث قد جاء فى مستدرك الحاكم بروايتين : جاء فى إحداهما

محمد ابن أحمـــد بن سعيد الرازى وهو من الضعفاء ، والمطلب بن عبدالله ، وهو من الضعفاء أيضا، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان، وقد ضعفه النسائى والبخارى . وجاء فى الثانية عبدالمنعم بن إدريس عن وهب بن منبه ، وهو قصاص لايعتمد عليه ، وقد ذكر أحمد بن حنبل أنه كان يكذب على وهب بن منبه ، وذكر البخارى أنه ذاهب الحديث .

وقد ذهب الحاكم مع هذا الى تصحيح سند هذا الحديث ، وله فى هذا رأيه ، ولـكنه لم ير فى أبى هريرة ما رآه صاحب ذلك الـكتاب ، بل قال : ولا أشك أن أبا هريرة رحمة الله تعالى روى هذا الحديث عن متقدم من الصحابة أنه دخل على رقية رضى الله عنها ، لـكنى قد طلبته فلم أجده فى الوقت . فلم يتهجم على أبى هريرة كما تهجم صاحب الـكتاب ، واكتفى بحمل الحديث على الخطأ .

على أن تصحيح الحاكم لسند هذا الحديث لايفيد صاحب الـكتاب بشىء، لأن أباهريرة يدخل فى سنده عند الحاكم ، ثم إن غير الحاكم لايصحح هذا السند ، فقد جاء هذا الحديث فى كتاب التاريخ الصغير للبخارى (ص ١٠٠) فذكر إسناده إلى المطلب بن عبد الله عن أبى هريرة، ثم قال: ولا يعرف للمطلب سماع من أبى هريرة ، ولاتقوم به الحجة . فأعله بالانقطاع ، ويجب أن يضاف إلى هذا أن الحاكم مطعون فيه بأنه يروى مالايعقل ، وبأن فى كتابه كثيرا من الموضوعات

فى السيرة النبوية

براعة الجاسوسية الإسلامية

في غزوة الأحزاب

قد يفهم كثير من الناس أن نظام الجاسوسية مما لاتقره الشريعة الإسلامية ، لأنه قد ورد النهى عن التجسس فى قوله تعالى فى الآية -١٢- من سورة الحُجُرات (ولاتجسَّسُوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً) والحقيقة أن التجسس المنهى عنه فى الآية هو ما يكون بين الأفراد ، ليعرف بعضهم أسرار بعض من غير أن يكون هناك داع إلى ذلك ، لأنه من الفضول المرذول ، ومثله يضر فى الغالب ولا ينفع ، أما نظام الجاسوسية فى الدولة فإنه مما لاغنى لها عنه لا فى سلم ولا فى حرب ، ولايمكن الإسلام أن يضيق فيه على المسلمين ، وأن يقف بهم مكتوفى الأيدى أمام مايلاقونه من تجسُّس أعدائهم عليهم ، بل اللائق بسماحته ومرونته أن يبيح لهم مثل ذلك التجسس ، حتى يعرفوا به خفايا مايدبر لهم من أعدائهم ، فلا يؤخذوا به على غفلة ، بل يقابلوه بتدبير يقيهم شره ، وقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك عيون تأتيه بخفايا أعدائه فى الداخل والخارج ، وهو مايشير إليه قوله تعالى فى الآية -٦١- من سورة التوبة (ومنهمُ الذينَ يؤذونَ النبيَّ ويقولونَ هو أذُنٌ قُلْ أذُنُ خيرٍ لكمْ).

ومن أبرع ماكان من الجاسوسيةَ الإسلامية ماوقع فى غزوة الأحزاب ، وكانت قريش قد جمعت جموعاً كثيرة من القبائل لغزو المدينة بقيادة أبى سفيان بن حرب ، وكان معه من الزعماء والقواد عُيينة بن حصن سيد بنى فزارة ، والحارث بن عوف سيد بنى مُرَّة ، وحُيَىّ بن أخطب سيد بنى النَّضير من اليهود .

وكان المسلمون قد حفروا خندقاً كبيراً حول المدينة ، فلم يستطع

جيش أبي سفيان أن يقتحمه عليهم ، فاكتفى بأن أقام حصاراً حول المدينة ، حتى يلجئها إلى التسليم إذا طال الحصار عليها ، ثم أخذ كل من الفريقين يستعين بجواسيسه على الآخر ، لعله يحدث بينه من الفشل مايقصر أمد هذا الحصار ، لأن أمره كان شاقا على جيش أبي سفيان، كما كان شاقا على أهل المدينة من المسلمين ، وإنما شق على جيش أبي سفيان مع أنه كان هو الذى يقوم به ، لأنه كان بعيدا عن مواطنه التى قام منها ، ولأن العرب لم تكن تعرف حرب الحصار ، ولم تكن بحيث تقوى على الصبر عليه ، وإنما كانت تعرف شَنّ الغارة السريعة ، لترجع منها بالأسلاب والغنائم ، وهو ما يشبه الآن الحرب الخاطفة.

وقد عمد أبو سفيان إلى أضعف موضع فى دفاع المسلمين ، وكان فيه بنو قُرَيظَة من اليهود ، وكانوا لا يزالون على الوفاء بالعهد الذى كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، فسلط أبو سفيان جواسيسه عليهم ، وأرسل حُيَيّ بن أخطب سيد بنى النَّضير من اليهود إليهم ، فلم يزل بهم حتى حملهم على نقض العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين ، وكان هذا ظفرا عظيما لجاسوسية أبي سفيان على الجاسوسية الاسلامية، وخطراً عظيما على أهل المدينة ، وقد زاد فى خطره أن المنافقين من أهلها كأنما كانوا على ميعاد من نقض بني قريظة لعهدهم ، لأنهم كانوا جواسيس بالمدينة للمشركين على قومهم ، والظاهر أنه كان هناك اتفاق بينهم وبين أبي سفيان أن يخرجوا على المسلمين فى الوقت الذى يخرج فيه بنو قريظة ، فأخذوا يفرون من صفوف المسلمين ليوقعوا الخلل والرعب فيها ، وكانوا يفرون من القتال إلى بيوتهم بحجة الخوف عليها من بنى قريظة ، ليفر غيرهم من المسلمين أيضاً خوفاً على بيوتهم .

فاشتد الأمر على المسلمين ، وزلزلهم ذلك الظفر من جاسوسية أبي سفيان زلزالا شديدا ، ولم يكن هناك من سبيل إلا أن تقوم

جاسوسيتهم بعمل يعلو على عمل جاسوسية أبي سفيان ، ويحدث من الفشل بين صفوفه مثل ما أحدث لهم من ذلك الفشل ، وكانت حالتهم من الشدة بحيث تحتاج إلى عمل من جاسوسيتهم سريع حاسم ، فانتشرت جواسيس المسلمين بين جيش أبي سفيان ، ووجهوا عملهم إلى زعماء البادية الذين يقاتلون معه ، لأنهم لا يقاتلون إلا طمعا في الأسلاب والغنائم ، فيكون من السهل إغراؤهم بالمال على الخروج على أبي سفيان ، وقد تمكنوا بهذا من التأثير في عُيَيْنة بن حصن الفزارى والحارث بن عوف المُرىّ ، حتى حملاهما على أن يذهبا في خفية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ليتفقا معه على ما يعطيه لهما إذا تركا القتال ورجعا بمن معهما من قبائلهما

وقد كان هذا عملا للجاسوسية الاسلامية أبرع من عمل جاسوسية أبي سفيان ، لأن ذهاب عيينة والحارث في خفية إلى النبي صلى الله عليه وسلم سيؤدى حتما إلى الخلل في جيش أبي سفيان ، حتى ولو لم يصلا الى الاتفاق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهما يقعان بهذا في خيانة أبي سفيان ، فتفسد نفوسهما بعده ، ولا يكون حالهما في الإخلاص له اذا رجعا من غير اتفاق كحالهما قبله ، ولا سيما اذا عملت الجاسوسية الاسلامية على إشاعة ماعملاه في خفية بين جيشه .

فلما ذهب عيينة والحارث في خفية الى النبي صلى الله عليه وسلم عرض عليهما أن يقطعهم ثلث ثمار المدينة على أن يتركا القتال ويرجعا بمن معهما ، فطلبا منه أن يقطعهما نصفها فأبى ، فرضيا بما عرضه عليهما من الثلث ، وحينئذ أرسل الى سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة سيدى الأوس والخزرج ، ليستشيرهما في أمر ما أقطعه لهما ، لأن الثمار ثمارهم ، ولا يمكنه أن يقطع فيها دونهم ، فقالا له : يا رسول الله ، إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا وطاعة ، وإن كان هو الراى ، فما لهم عندنا إلا السيف .

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيهما، وقال لعيينة والحارث: ارجعا بيننا وبينكما السيف . ولعله لم يكن يقصد من إتيانهما أن يعطيهما شيئا ، وإنما كان يقصد أن يوقعهما فى خيانة أبي سفيان ، ليفسد نفوسهما عليه ، ويوقع الخلل بهذا فى جيشه ، ولاسيما إذا أشاعت الجاسوسية الإسلامية خبر خيانتهما فيه .

ثم ساق الله تعالى بعد هذا للمسلمين جاسوسا من أعدائهم ، ليزيد به فى عوامل الفساد بينهم ، فهدى نعيم بن مسعود الأشجعي من زعماء جيش أبي سفيان للإسلام ، وقد كتم إسلامه عن قومه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فى خفية فأخبره به ، وعرض عليه أن يساعده بما يمكنه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت رجل واحد ، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة

فوافقه النبي صلى الله عليه وسلم على كتمان إسلامه ، ليمكنه أن يتم ماقامت به الجاسوسية الإسلامية من ذلك العمل البارع ، ولاشك أن عمله فى التجسس سيكون أقوى من عملها، لأن المشركين ينظرون اليه كما ينظرون إلى كل زعيم من زعمائهم ، فيطمئنون إلى كل ما يأمر به ، ويثقون بكل مايشير به عليهم

وكان من نعيم بعد هذا أن خرج إلى بنى قريظة ، وكان لهم نديما ، فلما رأوه رحبوا به ، وعرضوا عليه الطعام والشراب ، فأخبرهم بأنه جاءهم لغير هذا ، وأنه يخاف عليهم إذا حاربوا محمدا أن تتركهم قريش له ، وليس لهم طاقة به ، وهم ليسوا أصحاب دار ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ،وأنه يرى أن يأخذوا رهنا من أشرافهم تكون ثقة بأيديهم قبل أن يحاربوا معهم، فاستحسنوا رأيه، وأخبروه بأنهم طالبون ذلك منهم، فأمرهم بكتمان ماجرى بينه وبينهم

ثم تركهم وذهب إلى قريش ، فأخبر رؤساءها بأن بنى قريظة ندموا على نقضهم عهدهم مع محمد ، وأنهم يريدون أن يرضوه بأخذ سبعين من أشراف قريش ليكونوا رهائن عندهم ، ثم يقدموهم إليه ليقتلهم ، فرضى بهذا منهم ، فصدقه رؤساء قريش فيما قال . وقد طلب منهم أن يكتموا ماجرى بينه وبينهم

وكان بعد هذا أن أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة يدعوهم إلى القتال غدا ، فقالوا لرسله : إن غدا السبت ، فلانقاتل فيه ، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم ، حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم

فتحقق أبو سفيان ومن معه كلام نعيم بن مسعود ، وانضم هذا إلى ما كان من خيانة عيينة والحارث لأبى سفيان ، فتفرقت قلوب ذلك الجيش بعد اجتماعها ، ورأى أن أمله انقطع فى الاستيلاء على المدينة بعد أن كاد يصل اليه ، والفضل فى هذا لبراعة الجاسوسية الاسلامية ، ولسرعة ما قامت به فى تلك الساعة الحرجة ، وقد كان المسلمون فى ذلك الوقت أهل كياسة وسياسة ، وأصحاب مرونة ولباقة ، وهو ماينقصنا اليوم فى عصر تألب علينا فيه أعداؤنا ، واستحكمت حلقاته علينا

ثم كان أن أرسل الله على ذلك الجيش ريحا باردة فى ليلة مظلمة ، فزادته هما على همه ، وأوقعت فى قلوبه رعبا شديداً ، فخافوا أن يبيتهم المسلمون وبنو قريظة ، ولم يروا إلا أن يرحلوا عن المدينة فى ليلتهم ، فرحلوا عنها وهم فى أشد ما يكون من الخوف ، وقد تركوا خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهورهم ، حتى لا يدهموا من ورائهم ، فنجا المسلمون بهذا من شر عظيم ، وكان الفضل فى نجاتهم لبراعة جاسوسيتهم ، ولتوفيق الله تعالى لهم فى أعمالهم ؟

من أسرار غزوة بدر

المعروف بيننا أن قوله تعالى فى الآيتين - ٦٧ ، ٦٨ - من سورة الأنفال : (ماكانَ لنبيٍّ أن يكونَ له أسْرى حتّى يثخنَ فى الأرضِ تريدونَ عَرضَ الدنيا والله يريدُ الآخرةَ والله عزيز حكيمٌ ، لولاَ كتابٌ منَ الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ) نزل فى أخذ الفداء من أسرى بدر ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد جمع أصحابه ليستشيرهم فى أمرهم ، فقال له أبو بكر : يارسول الله ، قومك وأهلك . إستبقهم واستأنِ بهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار

وقال عمر : يارسول الله ، كذبوك وأخرجوك ، فدعهم نضرب أعناقهم ، مَكِّنْ عليًّا من عَقيل — أخيه — فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس — أخيه — فيضرب عنقه ، ومكنىّ من فلان — نسيب له — فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر

وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ، أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرمهُ عليهم نارا . وكان عبد الله شاعرا ، ومن عادة الشعراء المغالاة فى أمورهم ، لغلبة العاطفة والخيال عليهم

فسكت النبى صلى الله عليه ولم يجبهم ، ثم تركهم ودخل ، فقال ناس منهم : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس منهم : يأخذ بقول عمر . وقال ناس منهم : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة

فلما خرج اليهم قال : إن الله لَيُلينُ قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ، ويشدّ قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة ، وإن مَثَلكَ ياأبابكر مثلُ إبراهيم ، قال (فمَن تبعني فإنّهُ منّي ومن عصاني فإنّكَ غفورٌ رحيمٌ) ومثلك ياأبا بكر مثل عيسى ، قال (إن تعذّبهم فإنهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيمُ) ومثلك ياعمر مثل نوح ، قال (ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً) ومثلك ياعبد الله بن رواحة كمثل موسى ، قال (ربّنا اطمس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرَوُا العذابَ الأليم) ثم قال : اليوم أنتم عالةٌ ، فلا يفلتنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأى أبي بكر فى قبول الفداء ، وهنا يروى الرواة عن عمر أنه لما كان الغد أتى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان ، فقال : يارسول الله ، أخبرنى من أيّ شيء تبكى أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة منهم — فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم تينك الآيتين السابقتين

فهل يصح أن يغضب الله عليهم لأخذهم الفداء؟ وهم لم يأخذوه إلا بعد أن أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم فى أخذه ، وقد كان هذا بعد اجتهاد منهم ، والمجتهد معذور إذا أخطأ فى اجتهاده

وهل يصح أن يغضب الله لما أخذوا به من الرفق بالأسرى فى قبول الفداء منهم ، وهو الذى يوافق ما جاء به الاسلام من الأمر بالإحسان

إلى الأسير ، فخالف بهذا ما كان يتخذ قبله من الشدة فى معاملة الأسرى

وهل يصح أن يغضب الله لفداء أولئك الأسرى ؟ وفيهم مثل العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب ، وهو يعلم ما سيكون من إسلامهم ، وأنه سيحقق رجاء أبى بكر فيهم — لعل الله أن يتوب عليهم — وكان صناويد قريش قد قتلوا فى هذه الغزوة ، ولم يفلت إلا قليل منهم ، وكان أكثر من وقع فى الأسر من غير أولئك الصناديد ، وممن يرجى إسلامهم فى مستقبل أمرهم

وإنى أرى أنه إذا أبيح قتل الأسير فى الإسلام فإنه لا يصح أن يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى ، وإنه ليعجبنى ما روى عن الحسن وعطاء أنهما قالا : لا يقتل الأسير ، ولكن يفادى أو يمن عليه . وقد اعتمدا فى هذا على قوله تعالى فى الآية — ٤ — من سورة محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاقَ فإما منًّا بعدُ وإما فداءً) فلم يذكر القتل ، وإنما ذكر الفداء ، فيبقى القتل على حرمته [1]

وإنى أرى أن الآيتين السابقتين نزلتا فى أمر آخر حدث أثناء القتال فى بدر ، ولم ينزلا فى قبول الفداء بعد انتهاء القتال ، وذلك أن تلك الغزوة كان لها شأنها من بين الغزوات ، لأنها حصلت فى أوائل الحرب التى قامت بين المسلمين وقريش ، وكان المسلمون فى قلة بين العرب ، إذ كان الإسلام لا يكاد يجاوز المدينة . ولهذا أمرهم الله فى هذه الغزوة ألا تأخذَهم رأفة ولا شفقة بأعدائهم إذا أمكنهم ، ليثخنوا فيهم ويقضوا على صناديدهم . كما قال تعالى فى الآية — ١٢ — من سورة

---

(١) المبسوط للسرخسى ج ١٠ ص ٢٤

الأنفال (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) فأمروا في هذا بقتلهم وعدم الإبقاء عليهم بأسرهم . ولا شيء في هذا أثناء القتال

ولكن المسلمين خالفوا هذا في قتالهم ، لأنهم لم يكادوا يرون بوادر النصر حتى غلبت عليهم جاهليتهم الأولى . إذ كانوا يتخذون القتال وسيلة إلى الحصول على المال ، فتركوا قتل المشركين ، وأخذوا في أسرهم طمعا في فدائهم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرقب القتال في عريشه ، وسعد بن معاذ قائم على بابه متوشحا في نفر من الأنصار ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس حين استبدلوا الأسر بالقتل . فقال له : والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم . فقال سعد : أجل والله يارسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال

فهذا الإثخان أثناء القتال هو الذي نزل فيه قوله تعالى في الآيتين السابقتين (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) ولا شيء في الإثخان في القتل أثناء القتال ، بل هو مما تبيحه الشرائع العادلة ، ويقتضيه الحزم والتدبير ، وكثيرا ما يكون التهاون فيه سبباً في خسارة المعركة . فالمراد أنه ما كان لنبي أن يكون له أسرى بإيثار الأسر على القتل في القتال ، لا بقتل الأسرى بعد الانتهاء من قتالهم . فإن هذا لا يقره كثير من الشرائع . ولهذا اختلف فقهاؤنا فيه ، وذهب بعضهم إلى تحريمه

وأما قوله تعالى في الآيتين السابقتين (تريدون عرض الدنيا) فلا يراد منه الفداء الذي أباحه لنا بعد القتال ، وأشار به أبو بكر ، .

واختاره النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما يراد منه ما حصل منهم أثناء القتال من إيثار الأسر على القتل ، لأنهم أرادوا به عرض الدنيا ، وهو الطمع فى فداء الأسرى ، وهذا هو قتالهم فى الجاهلية ، والإسلام أشرف من أن يكون القتال فيه لذلك الغرض

وقد يقال : إنه لو صح هذا لعوقبوا عليه بحرمانهم مما طمعوا فيه من الفداء ، والجواب أنهم بعد انتهاء القتال صاروا إلى حالة أخرى لها حكمها ، ويجب أن يقضى فيها بالمصلحة ، ويقطع النظر عما كان منهم أثناء القتال ، وقد قضت المصلحة بإيثار الفداء على القتل بعد حصول الأسر

ولا شك أن ماذهبت اليه فى تفسير الآيتين السابقتين هو الظاهر منهما ، لأن العتاب فى قوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) لم يرد إلا على الأسر ، فيكون العتاب على إيثاره على القتل أثناء القتال ، أى على وجود الأسر ، وهذا يخالف المعروف فى تفسيرهما ، لأن العتاب فيه على قبول الفداء لا على وجود الأسر ، ولو كان المقصود العتاب على قبول الفداء لكان نظم الآية — ما كان لنبي أن يبقى على أسرى — بأن يقتلهم ولا يقبل الفداء منهم

وإذا كنت بما ذهبت اليه من ذلك أخالف المعروف من تفسير تينك الآيتين ، فإنى لست أول من خالفه ، لأن ابن السبكى قال قبلى فى تفسيرهما : ما كان لنبي غيرك أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . فجعل هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، ولا شك ان تفسيرى للآيتين أقرب إلى التفسير المعروف من تفسير ابن السبكى ، وأن تفسيره بعيد عن نظم الآية ، وإنما الأقرب إلى نظمها تفسيرى وحده ؟

استفتاء العلم فى أول وحى

كثير من الناس يمر على استفتاء ورقة بن نوفل فى أول وحى فى الإسلام ولا يرى فيه مايلفت النظر ، ويحدد موقف الإسلام من العلم لأول ظهوره ، ويبين مبلغ اهتمام الإسلام بتحديد هذا الموقف من أول وحى نزل ، لأن أهل الأديان السابقة كانوا يقفون موقف العداء من العلم ، حتى ذمت بعض رسائلهم المقدسة الحكمة والحكماء ، فقالت فى ذم الحكمة : لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله : وقالت فى ذم الحكماء : الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة

فهل جاء الإسلام لينأى عن العلم والحكمة كما نأى أهل أولئك الأديان ؟ فأدى بهم مجافاة العلم والحكمة إلى الوقوع فى البدع التى أدت بهم إلى تحريف دياناتهم ، وتشويهها بجهالات الوثنية وأباطيلها ، أو جاء ليسلك مسلكا آخر يؤاخى فيه بين العلم والحكمة ، ويقف منهما موقفا يوافق شريعته التى جاءت خاتمة الشرائع ، لتجد منهما الحارس الأمين ، وتأمن بهما من الوقوع فيما وقعت فيه الشرائع السابقة ، فيسير كل من الدين والعلم والحكمة جنبا لجنب ، ليتضافر كل منهما فى هناءة هذا العالم ، ويتعاون كل منهما فى سعادته فى دنياه وآخرته

وقد جاء استفتاء ورقة بن نوفل فى ذلك إيذانا باختياره المسلك الثانى مع العلم والحكمة ، وإعلانا بأنه يمد يده إليهما من أول يوم ظهر فيه ، وبهذا يعظم شأن ذلك الاستفتاء ، ويكون له مغزى عظيم الخطر ، وغاية جليلة القدر ، وهأنذا أبين كيف كان ذلك الاستفتاء فى أول وحى

نشأ النبي صلى الله عليه وسلم بين قومه فى مكة كما نشأ غيره فيها ، فرعى الغنم صغيرا، ثم اشتغل بالتجارة التى كان قومه يشتغلون بها ، ولما بلغ خمسا وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، وكانت ذات ثراء فى مكة ، فلم تضن عليه بشيء من مالها ، وبهذا وجد فسحة من وقته بعد تزوجها ، فكان يقصد إلى غار حراء يتعبد فيه الفينة بعد الفينة ، فيقضى فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يعود إلى زوجه بعد أن ينتهى من عبادته ، ولم يكن هذا شأنه وحده فى قومه ، بل كان كثير منهم يشاركه فى هذا التنسك

وقد قضى فى هذه الحياة التى لا يختلف فيها عن قومه أربعين عاما ، لا يفكر فى شيء غيرها ، ولا يترقب أن يتغير مجراها إلى ما صارت اليه بعد هذا السن ، بل كان راضيا بها كل الرضا ، لأنه يجد فيها زوجا وفيه مخلصة ، وقوما يحبونه ويرضون عنه ، لما اشتهر به من الاستقامة والأمانة والصدق ، حتى كانوا يلقبونه بينهم الأمين ، ومن يكون هذا حاله يعيش سعيدا بين قومه ، ويرضى بحظه من هذه المعيشة السعيدة

فلما جاءه الوحي لأول مرة فى غار حراء صادف منه مالم يكن ينتظره ، وكان لمفاجأته له أكبر تأثير فى نفسه ، فبينما كان قائما ذات يوم على الجبل ، إذ ظهر له شخص غريب لم يشاهد مثله فى حياته ، فقال له : أبشر يا محمد ، أنا جبريل ، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة . إقرأ . فقال : ما أنا بقارىء . لأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فأخذه جبريل فغطه بالنمط الذى كان ينام عليه ، حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال له : إقرأ . فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانية ثم قال له : إقرأ . فقال : ما أنا بقارىء . فغطه ثالثة ثم قال له (إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم)

ثم اختفى جبريل بعد هذه المفاجأة ، فكان لظهوره واختفائه بهذا الشكل الغريب أكبر أثر فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، فقطع عبادته ورجع إلى زوجه خديجة يرجف فؤاده بما ألمّ به من الفزع ، ولما دخل منزله قال : زملونى زملونى. فزملوه حتى زالت القشعريرة عنه ، وذهب عنه ذلك الفزع ، فأخبر خديجة بما حصل له من ذلك الأمر ، وخشى على نفسه أن يكون أصابها شىء ، فيكون ما رآه شيطانا لا ملكا ، فطمأنته خديجة على نفسه ، وقالت له : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرِى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مِراء أن الله اختارك لهداية قومك

فاطمأن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا بعض الاطمئنان ، واطمأنت زوجه عليه بعد أن زال عنه ما ألمّ به من الفزع ، ولكنهما أرادا أن يزدادا اطمئنانا بالرجوع إلى علم العلماء بهذه الأحوال ، لأن العلم هو الذى يطمئن النفس ، ويفيد اليقين بما عنده من البرهان ، وهنا يمد الإسلام يده إلى العلم فى أول يوم يولد فيه ، ليدل على أنه لا يجد غضاضة فى الاستعانة به ، وعلى أنه سيقف منه موقفا يخالف موقف أهل الديانات قبله .

وكان لخديجة ابن عم عالم يقال له ورقة بن نوفل ، تنصر فى الجاهلية وتعلم اللغة العبرية ، فكان يكتب بها من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وقد عرف بهذا بين قومه ، واشتهر بالعلم بينهم ، وكان فى ذلك الوقت شيخا كبيرا زال بصره ، وانقطع للعلم الذى كان يعز وجوده بين قومه ، وكان ذا نفس كريمة تخضع للحق ، وتحب الإنصاف ، وتطلب العلم

للعلم ، لا لتستفيد منه مالا أو جاها يورثه جمودا فيه ، وخوفا من منافسة غيره له فى دين أو علم .

فأخذت خديجة زوجها اليه لتستفتيه فيما حصل له ، وتستعين بعلمه فى زيادة الاطمئنان عليه ، فقالت له : يا ابن عمّ ، إسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بأمر ذلك المَلَك .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ، ثم قال : ياليتنى فيها جَذَعا إذ يخرجك قومك من بلادك التى نشأت بها لمعاداتهم إياك ، وكراهتهم لك ، حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم له : أوَ مخرجىَّ هم ؟

فقال له ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزّرا .

وإنما استغرب النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرجه قومه ، لأنهم كانوا يحبونه ويرضون عنه كما سبق ، فاستغرب أن يعادوه إذا دعاهم إلى هذا الدين الحق ، وأن ينقلب هذا الحب الذى مكث أربعين سنة إلى عداوة وبغضاء .

وقد رجعت خديجة بزوجها إلى منزلها ، بعد أن طمأنها ورقة بن نوفل عليه ، وأخبرها بأن ما رآه مَلَك لا شيطان ، لأن الشيطان لا يأتى بمثل ذلك ، وإنما يأتى به ذلك الناموس الذى كان يأتى الأنبياء قبله

فمد العلم يده بهذا إلى الدين كما مد اليه يده ، وزاد فى يقينه بما عنده من البرهان حين طلب منه أن يزيد فى يقينه ، ولم يتردد فى الإيمان به

وتأييده إذا صادف من أعدائه إنكارا ، أو لاقى منهم جحودا ، وقد أثبت بهذا أن العلم الصحيح لا يعادى الدين ، كما أن الدين الصحيح لا يعادى العلم ، لأن الغاية منهما واحدة فى هذه الحياة وهى الوصول إلى معرفة الحقيقة ، والعمل على سعادة الناس فى دنياهم وأخراهم ، وإن كان الدين يعتمد فى هذا على طريق الوحى ، والعلم يعتمد فيه على طريق العقل ، لأن المعول عليه هو الاتحاد فى الغاية ، ولا يضر بعد الاتحاد فيها الاختلاف فى الوسيلة ، لأن الغاية لا يلزم أن يكون لها وسيلة واحدة ، بل قد يكون لها وسيلتان أو أكثر .

ولا شك أن الاسلام قد فتح بذلك عهدا جديدا فى التاريخ ، وانتقل به من حال الطفولة التى كان يؤمن فيها بالخرافات والأباطيل ، ولا يعتمد على العلم والعقل ، إلى حال الكمال العقلى الذى تكسد فيه سوق الخرافات والأباطيل ، ويظهر فيه سلطان العلم والعقل ، فتتخلص العقول من قيود الجهل ، وتنطلق من عقالها وراء البحث والنظر ، لتصل إلى ما قدر لها من الكمال ، وتكشف من العلوم ما يسعد الناس به فى دنياهم وأخراهم .

وإذا كان هذا كله هو المغزى من استفتاء ورقة بن نوفل فى أول وحى فى الاسلام ، فما أعظمه مغزى ، وما أشرف الغاية التى يرمى اليها ؟

بين المرونة والتنطع فى الدين

فى غزوة حنين

يراد من المرونة فى الدين أن يكون دينا مرنا لاجمود فيه ، ويراد من التنطع فى الدين التعمق فيه إلى أن يصل إلى حد الجمود ، وقليل من الناس من يعرف الآن أن التعمق فى الدين ليس منه فى شىء ، لأنا صرنا فى زمن انقلبت فيه أوضاع الدين ، حتى صار التعمق فيه هو المثل الأعلى عند المسلمين ، وصار المتعمقون فيه قدوتهم وموضع رجائهم ، يلتمسون منهم البركات ، ويقيمون لهم القباب بعد الموت

وقد وجد من أولئك المتعمقين فى دينهم شخص فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، يقال له ذو الخويصرة التميمى ، وكان له موقف معه فى غزوة حنين ، يدل على مقدار ما يصل اليه التعمق فى الدين بصاحبه ، حتى يجعله يرى أنه أعلى فى الدين من النبى الذى أرسل به .

ولا بد من ذكر هـــذا الموقف بين النبى صلى الله عليه وسلم وذى الخويصرة فى غزوة حنين ، ليكون فيه للناس عظة تنفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويعرفوا أن الدين ليس أذكارا تقرأ ، وأورادا تتلى ، وقواعد ينظر إلى ألفاظها ومعانيها ، ولا ينظر إلى غاياتها ومقاصدها ، ولا يلتفت إلى وجه الحكمة فيها ، ليراعى ما يحيط بها من الظروف والأحوال ، وتؤخذ ببعض التساهل إذا وجب أخذها به ، وحدثت أحوال توجب عدم التقيد بكل أحكامها وقيودها ، وفى هذا تظهر حاجة المتدين إلى أن يكون عنده شىء من المرونة وحسن السياسة ، حتى لا يقف جامداً أمام الألفاظ والنصوص ، ولا يتصرف فيها

بما يلائم الظروف الطارئة ، ويوافق الأحوال العارضة . ومثل هذا لا يتأتى للمتنطع فى الدين ، لأنه يأخذ نفسه بكل القيود ، ولا يتساهل فيها بتأثير الظروف والأحوال ، فالدين عنده ليس إلا قواعد موضوعة ، وألفاظا لها معان لا تحيد عنها .

وضعت قاعدة قسمة الغنائم فى غزوة بدر ، وكانت فى السنة الثانية من الهجرة ، فاستقر العمل بها فيما بعدها من السنين ، إلى أن كانت غزوة حُنَين فى السنة الثامنة من الهجرة ، وكانت قد جدت فيها ظروف لم تكن فيما قبلها من الغزوات ، إذ خرج فيها مع المسلمين أهل مكة من قريش ، وكان بعضهم لم يمض على إسلامه إلا أيام معدودة ، وبعضهم لا يزال باقيا على شركه ، فكانوا فى حاجة إلى التأليف والترغيب فى الإسلام ، وكان قتالهم لا يزال متأثراً بما كان يقصد له فى الجاهلية ، من الحصول على الأموال والغنائم ، لأن إسلامهم كان لا يزال ضعيفاً ، حتى إن بعضهم ارتد عنه حينما هزم المسلمون فى أول هذه الغزوة ، فقال قائل منهم : الآن بطل السحر . وقال قائل منهم : ألآن ترجع العرب إلى دين آبائها ، وقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

فلما انتصر المسلمون بعد هزيمتهم فى هذه الغزوة ، وغنموا فيها غنائم لا تحصى ولا تعد ، اشرأبت أعناق قريش اليها ، وامتدت أعينهم نحوها ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤثرهم بشىء من هذه الغنائم ، ليتألف من أسلم منهم ، ويرغب فى الإسلام من بقى منهم على شركه ، فبسط يده فى العطاء ، وأعطاهم كثيرا مما امتدت اليه أعينهم ، وقد رأى صفوان بن أمية يرمق شعبا مملوءاً نَعَما وشاء ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم . فقال له : هو لك . فقال صفوان :

ما طابت بمثل هذا نفس أحد . وكان لا يزال مشركا فأسلم ، وأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل . فقال له : ابني يزيد. فأعطاه كذلك ، وقال له :ابني معاوية . فأعطاه كذلك ، فأخذ منه ثلثمائة من الإبل ، ومائة وعشرين أوقية من الفضة ، وقال له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم المسالم كنت ، هذا غاية الكرم ، جزاك الله خيرا . وأعطى العباس ابن مِرْداس دون عُيَيْنة بن حصن والأقرع بن حابس فغضب لأنه أعطاه دونهما ، وقال يعاتبه :

كانتْ نهاباً تلافيتها بكَرِّى على المهر فى الأجرعِ
فأصبح نهبى ونهب العُبَيْـ ـد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ فى المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومَن تَضَعِ اليومَ لا يُرْفع

فقال النبي صلى الله عليه وسلم . إذهبوا فاقطعوا عنى لسانه . فأعطوه حتى رضى .

وكان ذو الخويصرة التيمى يشاهد ذلك كله ، فلم تسعه نفسه المتعمقة فى الدين ، ولم يرتح له تنطعه وجموده ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ! فقال له : أجل ، فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عدلت . فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنكر عليه أن يرميه بالظلم والجور ، ثم قال له . وَيْحَك ، إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ وكان عمر بن الخطاب حاضرا ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، دعنى أقتل هذا المنافق. فقال له : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي ، دَعْه ، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم

من الرمية ، ينظر فى النصل فلا يوجد شيء ، ثم فى القِدْح فلا يوجد شيء ثم فى الفوق فلا يوجد شيء ، سبق الفرث والدمَ .

فهذا التعمق فى الدين قد أوقع ذا الخويصرة فى ذلك الجهل الفاضح ، وأدى به إلى ذلك الجمود القبيح ، وجعله ينسى مقام النبوة فيتعالى عليها ، ويظن أنه أرسخ فى الدين منها ، وينكر على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ فى قسمة غنائم حنين بشيء من حسن السياسة ، وأن يراعى ما جد فيها من ظروف وأحوال ، فلا يتقيد فيها بما جرى عليه فى قسمة الغنائم قبلها ، لأنه لم يكن له مثل ظروفها وأحوالها ، والقواعد لا يصح ان تؤخذ مجردة عما يقترن بها من الأحوال ، وما يحيط بها من الظروف .

وكان على ذى الخويصرة أن يعرف أن حسن السياسة من الدين ، فإذا اقتضى فى بعض الأحوال شيئا من التساهل فى تطبيق القواعد لم يكن فيه حرج ، لأن الدين يُسْرٌ لا عسر ، ولا يصح أن يؤخذ بذلك التعمق والتزمت ، لأنه وسط لا تفريط فيه ولا إفراط ، ولا تهاون فيه ولا تشدد .

وقد يظن بعض الناس أن ذا الخويصرة كان من المنافقين الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، ولم يكن من المتشددين الذين يغالون فى الدين ، وقد ظن هذا فيه عمر بن الخطاب حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : دعنى أقتل هذا المنافق .

والحقيقة أن ذا الخويصرة لم يكن من أولئك المنافقين ، وإنما كان كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم طليعة لصنف آخر فى الدين ، يخلص فى دينه عن جهل ، ويتعمق فيه عن تنطع ، ويظن أن الدين قواعد ورسوم ، فيجمد على الأخذ بها ، ويقف عند ألفاظها ومعانيها ، ولا يبيح لنفسه أن يحيد عنها قِيدَ شعرة ، ولو حدث من الظروف

ما يقتضى الأخذ فيها بشيء من التساهل ، لأنه متشدد فى دينه لا يعرف التساهل فيه ، بل يرى هذا التساهل خروجا منه ، وذلك الصنف من المتشددين فى دينهم هم الذين عرفوا فيما بعد هذا باسم الخوارج ، فلم يرضهم إسلام عثمان ولا علىّ ولا طلحة ولا الزُّبير ولا غيرهم من المسلمين السابقين ، بل وقفوا منهم موقفا يشبه موقف ذى الخويصرة من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولئك الصنف من المتشددين فى الدين : أهم كفار ؟ فقال : من الكفر فرّوا ، فقيل له : أمنافقون ؟ فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا ، فقيل له : ماهم ؟ فقال : أصابتهم فتنة فعَمُوا وصَمُّوا[1] .

وهذه الفتنة هى فتنة الغرور بالتشدد فى الدين ، والوقوف عند حدود القواعد والرسوم ، وكل شيء جاوز حده انقلب إلى ضده ، والإسلام وسط بين التهاون والتشدد ، ولهذا جاء دينا عاما صالحا لكل الناس ، وجاءت أحكامه ملائمة لكل زمان ومكان .

فما أحوج المتزمتين الآن بيننا إلى أن ينتفعوا بهذه الموعظة ، فلا تضيق نفوسهم بما تدعو إليه الضرورة من بعض الخروج على المألوف ، ولا يقفون جامدين أمام القواعد والألفاظ ، لأن نطق الحوادث أقوى من نطقها ، فيجب إخضاعها له بما جاء فى الدين من وسائل إخضاعها ، لئلا يضيق الناس فى عصرنا بالدين ، ونندم على ما يترتب على هذا حين لا ينفع الندم ، وقد أعذر من أنذر .

---

(١) وقيل : إن هذا الكلام لعلى بن أبي طالب ، قاله فى أهل النهروان من الخوارج ، وقد نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى السيرة الحلبية ج٣ ص ١٤٠ — مطبعة محمد على صبيح

الشورى الإسلامية ونظام الحزبية

كم فى السيرة النبوية من أسرار فى التشريع وغيره لو رجعنا اليها لاكتفينا بها، ولأغنتنا عن الاستعانة بالتشريع الأجنبى الذى أضلته السياسة، وسارت به فى طرق ملتوية، فلو رجعنا مثلا فى هذه السيرة إلى نظام الشورى فى الحكم لوجدنا فيها نظاما أصلح من نظام الشورى الحديث، لأن الحكم فى هذا النظام الحديث يقوم على أساس الحزبية، فتكون الحكومة القائمة ممثلة لحزبها أكثر من تمثيلها للأمة بأسرها، ولهذا تكون مصلحة حزبها هى الأهم، لترضى أنصارها فى المجالس النيابية، وتضمن بقاء حزبها فى الحكم، ولقد كان هذا سببا فى طغيان الحزبية فى عصرنا، وقيام خصومات عنيفة بين أحزاب كل أمة، وخلافات خطيرة تفرق كلمتها، وتشغل الناس بأمرها عن المصلحة العامة، أما الاسلام فلا يعرف فى حكمه هذه الحزبية المتعصبة، لأن حكومته ترعى مصلحة الناس جميعا، ولا تهمها مصلحة الأحزاب كما تهم الحكومات الحديثة.

وقد يختلف فيها أهل الشورى فى أمر من الأمور، فيبدى كل واحد رأيه فيه من غير أن يتقيد برأى حزب من الأحزاب، لأنه لم يكن فيها أحزاب تقيد أعضاءها برأيها، ويطغى رأيها على رأى كل فرد فيها، فتضيع الحرية الفردية، وتستبد بها الأحزاب القائمة، والاستبداد ممقوت على كل حال، سواء أكان استبداد فرد، أم كان استبداد حزب، وسأسوق من هذا مثالا من أمثلة اختلاف أهل الشورى فى بدء الإسلام.

كانت غزوة أحُـد في السنة الثالثة من الهجرة ، وقد اختلف أهل الشورى فيها أيخرجونَ من المدينة إلى لقاء عدوهم ، أم يمكثون فيها ولا يخرجون ؟ وكان أصل هذا الخلاف أن رجالا من المسلمين أكثرهم من الأحداث أسفوا على ما فاتهم من غزوة بدر ، لِمَا كانوا يسمعون من إشادة النبي صلى الله عليه وسلم بفضل من شهدها ، فكانوا يتمنون غزوة ينالون فيها من النصر ما ناله أهل بدر ، أو من الشهادة فى سبيل الله مثل من نالها فيها ، فرأوا أن يبادروا بقتال المشركين فى غزوة أحد ، فيخرجوا اليهم من المدينة ، ولا يبقوا فيها حتى يأتوا إلى قتالهم

فنام النبي صلى الله عليه وسلم ليلته فرأى رؤيا فيها ، فلما أصبح قال : والله إنى قد رأيت خيرا ، رأيت بقرا تذبح ، ورأيت فى ذُباب سيفى ثَـلْـما ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة ، فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، وإنى رأيت أن تقيموا بالمدينة ، تدعوهم ينزلون حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مُـقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم ، ورُمُـوا من فوق البيوت .

وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، وجعلوا فيهـا الآطام والحصون ، فكانت حصنا قويا لأهلها ، وكان الرأى أن يقيموا فيها ، كما فعلوا بعد هذا فى غزوة الأحزاب . فلم يمكن المشركين أن يقتحموها على المسلمين ، مع أن جموعهم كانت أكثر من جموعهم فى غزوة أحد .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد عود أصحابه الشورى فى الرأى، فإذا رأى رأيا لم يعمل على فرضه عليهم ، بل أباح لهم أن ينظروا فيه

حتى يتفقوا عليه أو يتركوه إلى غيره ، فأتى اليه القوم الذين رأوا أن يخرجوا من المدينة إلى لقاء العدو ، وقالوا له : يا رسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبُنّا عنهم وضعفنا .

وكان عبد الله بن أبيّ رئيس المنافقين بالمدينة يرى عدم الخروج منها ، لأنهم يكرهون القتال والاستشهاد فيه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فو الله ما خرجنا إلى عدو لنا قطُّ إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

وكان حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار يرون الخروج من المدينة ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ليحاولوا ضمه إلى رأيهم ، وقالوا له : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن أعداؤنا أنا كرهنا الخروج جبنا عن لقائهم ، فيكون هذا جراءة منهم علينا . ثم قال حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة .

وقال النعمان . يا رسول الله ، لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لم ؟ قال : لأنى أحب الله ورسوله ، ولا أفرّ يوم الزحف . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : صدقت . وقد استشهد رضى الله عنه فى هذه الغزوة .

فلما وصل الخلاف بينهم إلى هذا الحد رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يفصل فيه بإيثار رأى الكثرة ، لأنه هو القاعدة التى يجب أن يرجع اليها عند الاختلاف فى الشورى ، فلم ينظر إلى رأيه فى هذا الخلاف ، ولم يحاول أن يحمل عليه من يخالفه فيه ، لأنه لو فعل هذا لكان سُنَّة لمن يأتى بعده من الرؤساء ، وضاعت فائدة العمل بالشورى ، فسنَّها قاعدة يؤخذ بها فى حكم الشورى قبل أن يسُنَّها التشريع الدستورى الحديث ، وفاز بفضل السبق إليها فيه ، لأن الرأى يشتبه فى مثل هذه الأمور ، فلا يوجد أوفق للفصل فيه من الرجوع إلى تلك القاعدة ، لأنها ترجع إلى مسألة عددية لا لبس فيها .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الكثرة فى جانب الذين يرون الخروج من المدينة ، فاختار رأيهم على رأى غيرهم ، وخالف فى هذا رأيه ، وإن كان فى الواقع أرجح من رأى الكثرة ، ولكنه أراد أن يجعلها شريعة لمن يأتى بعده من الرؤساء ، فلا يتشبث رئيس برأيه عند الخلاف فى الرأى ، بل يؤثر عليه رأى الكثرة الغالبة ، ليستقيم أمر الحكم ، ويبعد عن أسباب الفتن ، وقد يكون رأى القلة أرجح من رأى الكثرة كما فى غزوة أحد ، ولكن مخالفة رأى الكثرة قد يكون أشد ضررا من مخالفة رأى القلة ، وقد جاء الإسلام بقاعدة ارتكاب أخف الضررين

وهنا نرى أن الخلاف لم يقم بين أحزاب تتعصب لرأيها ، ويحاول أن يسقط بعضها بعضا للوصول إلى الحكم ، بل قام بين جماعة لا أحزاب بينها ، وإنما هو الخلاف فى الرأى هو الذى قسمهم إلى فريقين فى تلك المسألة ، فإذا انتهى أمرهم فيها عادوا إلى مثل ما كانوا عليه من

الاتحاد فى الرأى ، ولم يتخذوا مظهر الخلاف فى الرأى شعارا لهم ، ولم يتشبثوا به كما تتشبث الأحزاب فى هذا العصر .

ثم كان بعد إيثار رأى الكثرة فى الخروج من المدينة أن صلى النبى صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس ، فوعظهم وأمرهم بالاجتهاد فى التأهب للقتال ، ووعدهم بأن لهم النصر ما صبروا ، ففرحوا لوعده فرحا عظيما ، ثم صلى بهم العصر ، وكانوا قد حشدوا وحضر أهل العوالى ، وهى القرى التى حول المدينة من جهة نجد ، فدخل حجرته وليس عدته ، وتقلد السيف ، وألقى الترس وراء ظهره .

وقد اصطف الناس مابين حجرته إلى منبره ينتظرونه حتى يخرج ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج ، وقلتم له ما قلتم ، والوحى ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر اليه .

فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم وجدوه قد لبس لأمته وتقلد سيفه ، فندموا على ما صنعوا من حمله على رأيهم ، وقالوا : ما كان لنا أن نخالفك . فاصنع ما شئت ، وفى رواية — فإن شئت فاقعد .

وإنه لإيثار جميل من تلك الكثرة ، وقد حملها عليه سبق النبى صلى الله عليه وسلم إلى إيثار رأيها على رأيه ، فقابلته إيثارا بإيثار ، لأن فضيلة الإيثار كانت شعار جماعتهم ، وكانت ديدنهم فى كل أحوالهم ، لأنهم لم تكن بينهم أحزاب تصر على الخلاف ، وتتعصب للرأى ، وتقضى بهذا على ما كان بينهم من فضيلة الإيثار .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم رأى أن الأمر قد تغير بعد اتفاقهم على الخروج من المدينة ، وبعد أن لبس لأمته وتقلد سيفه ، لأنهم

إذا رجعوا عن هذا لم ير العدو إلا أنهم قد جبنوا عن قتالهم ، فتقوى نفسه فى القتال ، والقوة المعنوية لها أثرها فى النصر ، وهذا إلى أن التردد فى الرأى مظهر ضعف ، فيكون له أثر سيء فى نفوس المسلمين

فلما فوضوا إليه أن يصنع ما شاء قال لهم : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وفى رواية — لا ينبغى لنبى إذا أخذ لأمة الحرب ، وأذّن فى الناس بالخروج إلى العدو ، أن يرجع حتى يقاتل .

ولا شك أن هذا كان غاية الكمال فى حكم الشورى ، فلم تتفرق الأمة فيه إلى أحزاب غايتها الوصول إلى الحكم ، بل كانت جماعة واحدة إذا اتفق أفرادها فغايتهم المصلحة العامة ، وإذا اختلفوا فغايتهم هذه المصلحة أيضاً ، فلا يلابسها مصلحة حزبية فى الحالين ، وإنما هى المصلحة العامة لا غير .

ولا يفوتنى فى ختام هذا البحث أن أنبه إلى أنى لا أقصد الطعن فى نظام الحزبية على الإطلاق ، وإنما أقصد الطعن فى نظام الأحزاب الذين يؤثرون مصلحتهم الحزبية على مصلحة الأمة ، أما الأحزاب التى تؤثر مصلحة الأمة فإنها أحزاب نافعة ، ولا يستغنى عنها نظام الشورى فى الحكم .

الرسول الفاتح

إذا نظرنا فى تواريخ الأنبياء صلوات الله عليهم وجدنا بينهم رسولين قصدا التشريع والفتح ، فكان لكل منهما شريعة أنزلها الله عليه ، وكان لكل منهما جهاد فى إنشاء دولة تقوم بحراسة شريعته ، وهذان الرسولان هما موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم .

فأما موسى فقد ظهر والوثنية فى عنفوانها ، ولها ممالك قوية تملأ الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، فاختاره الله تعالى لينشىء دولة صغيرة تدين بالتوحيد ، ليشع نوره بين ظلام الوثنية الحالك ، ويظهر عدله بين طغيانها وجبروتها ، ويرفع شيئا من قدر الإنسانية التى نزلت بها عبادة الأصنام ، بجعلتها وقد كرمها الله بالعقل تخضع لحجر لا يعقل ، وتدين بالعبادة لصنم لا ينفع ولا يضر ، وبهذا تمكن ملوك الوثنية من استعباد أهلها ، حتى رفعوا أنفسهم بينهم إلى رتبة الآلهة ، وحكموهم حكم من لا يسأل عما يفعل ، فطغوا فيهم أشد طغيان ، وساروا فيهم بالجبروت والعسف .

وقد نشأ موسى فى مصر بين بنى إسرائيل الذين هاجروا إليها من فلسطين فاستعبدهم أهلها الوثنيون ، وطغا فيهم فرعون أشد طغيان ، فأرسل الله تعالى موسى إليه لينقذ منه بنى إسرائيل ، ويسير بهم إلى فلسطين ، فينشىء لهم دولة بها ، وقد تمكن موسى من إنقاذهم منه ، ولم يتمكن من إنشاء دولة لهم بفلسطين ، لأن قومه لم يساعدوه على فتحها ، فضرب الله التيه عليهم فى سيناء أربعين سنة ، ولم يتمكنوا من

فتح فلسطين إلا بعد موت موسى عليه السلام ، فأقاموا لهم دولة بها حافظت على دين التوحيد أجيالا قليلة ، ثم أخذت تنحرف عنه شيئا فشيئا ، فسلط الله عليها أعداءها حتى قضوا عليها ، وشتتوا بنى إسرائيل فى سائر بقاع الأرض .

وقد ظهر محمد بعد موسى بنحو ألفى سنة ، توالى فيها كثير من الأنبياء بين بنى إسرائيل ، وكانت وظيفتهم تقرير شريعة التوراة التى أنزلت على موسى ، وتقوية عقيدة الإيمان فى نفوس قومهم ، حتى لا تطغى عليهم الوثنية المحيطة بهم من كل جانب ، فلم يغيروا شيئا فى هذه الشريعة ، ولم يحيدوا عنها قيد شعرة ، اللهم إلا ما كان من عيسى عليه السلام ، وكان آخر نبى ظهر بينهم ، وقد ظهر بعد موسى بنحو ألف وخمسمائة سنة ، فغير قليلا فى شريعة التوراة ، وأبقى على أصولها وكثير من فروعها ، ولكنه لم يبعث لينشىء دولة كما بعث موسى ومحمد . بل كان بنو اسرائيل خاضعين فى عهده لحكم الروم الوثنيين ، فلم يحاول أن يخلصهم من حكمهم ، بل أمرهم بالخضوع لهذا الحكم ، وقال كلمته المشهورة فى جواب من سأله فى هذا الشأن — أعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله — وقد دانت دولة الروم بشريعته بعد مضى زمن طويل عليها ، فلم تدن بها وهى غضة طرية كما أنزلت عليه ، بل دانت بها بعد أن فقدت جدتها ، وصارت تقاليد لا تمثل ما كانت عليه فى عهدها الأول ، فلم تغير شيئا يذكر من تقاليد تلك الدولة ، ولم تمح إلا قليلا من مظاهرها الأولى .

فكان التوحيد فى حاجة إلى دولة قوية تكون خالصة له ، ولا تقف عند الحدود الضيقة التى وقفت عندها دولة بنى إسرائيل ، بل تجاوز

تلك الحدود والمعالم، وترفع راية التوحيد في سائر أنحاء الأرض، لتبلغ دعوته إلى أهلها جميعاً، ولا تقتصر على دعوة بني إسرائيل كما اقتصرت دعوة موسى، وبهذا تصل بدعوة التوحيد إلى غايتها، فيكون الرسول الذي بعث لإنشائها خاتم الرسل، وتكون الشريعة التي أرسل بها خاتمة الشرائع، وكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي اختير لهذه الغاية، وقد اختير من بين العرب، ولم يختر من بين بني إسرائيل كما اختير موسى.

لقد كان بنو إسرائيل أمة قليلة العدد، وقد قضوا في مصر عهداً طويلا ضربت عليهم فيه الذلة والمسكنة، حتى ضعفت نفوسهم، ووهنت قلوبهم، فكان اختيار موسى لإنشاء تلك الدولة الصغيرة في فلسطين مناسبا لحال قومه، ولما كانوا عليه من ضعف النفوس والقلوب، والإحجام عن الجهاد بالنفس والمال، وقد أرسل الله موسى وأخاه هارون لينقذاهم من حكم فرعون، فقاما وحدهما بأعباء رسالتهما، ولم يشاركهما في هذا أحد من قومهما، لأنهم كانوا ضعفاء تملأ نفوسهم مهابة فرعون، وتروعهم عظمة ملكه، وقوة سلطانه، فوقف له موسى هو وأخوه بقوة الإيمان. وهي من قوة الله التي لا تغلب، ولا تقوى عليها جبابرة الأرض، وكان سلاح موسى ما أيده الله به من معجزات روعت قلب فرعون، وهزت أركان مملكته، وكان يريد بها أن يجذب قلبه إلى التوحيد، فأبى عليه وعصى، لأنه كان جباراً عنيداً، فلم يذعن لتلك العقيدة التي تحد من سلطانه، وتضعه في مرتبة رعيته، وأبى أن يمكن موسى من الهجرة بقومه إلى فلسطين، فهرب موسى بقومه ليلا من مصر، وقد تبعه فرعون بجنوده حتى أدركه وهو

يريد اجتياز البحر ، وهنالك كانت معجزة موسى الكبرى ، فضرب البحر بعصاه فانفلق له ولقومه ، فساروا فيه والماء محيط بهم من الجانبين ، وسار فرعون وراءهم فأطبق الماء عليه ، وأهلكه الله هو وجنوده .

فانتصر موسى وقومه بهذا على فرعون بقوة الله لا بقوتهم ، وكان نصراً هيناً لم يحملوا فيه سيفاً ، ولم يلقوا فيه أذى ، ولم يكن نتيجة حرب تربى فيهم رجالا ، وتظهر فيهم أبطالا ، وكان لهذا أثره فيهم حين جدّ الجد ، وجاء وقت إنشاء مملكتهم بفلسطين ، فلما دعاهم موسى إلى حرب أهلها أجابوه بما ذكره الله تعالى في الآية — ٢٢ — من سورة المائدة (قالوا ياموسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) فأرادوا أن يدخلوها بمعجزة من المعجزات التي ألفوا الانتصار بها ، وخافوا أن يدخلوها بحرب لم يألفوها ، فضرب الله التيه عليهم في فلسطين أربعين سنة ، ولم يدخلوا فلسطين إلا بعد أن مات ذلك الجيل الذي أضعفه استبداد فرعون ، وكان موسى قد مات قبل ذلك الفتح ، فكان رسولا مشرعاً ، ولم يكن رسولا فاتحا .

أما الرسول الفاتح فهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد اختاره الله من شعب قوى كثير العدد ، اتخذ الحرب صناعة ، واشتهر بين الشعوب بالشجاعة ، وتربى على الخشونة بين رمال الصحراء ، فلم يضعفه الترف كما أضعف غيره من الشعوب ، ولم تفسده الشهوات والملذات ، فكان أصلح الشعوب للنهوض بدولة التوحيد المنتظرة ، وأقواها على القيام بأعبائها ، وعلى نشر سلطانها بين الناس ، ليظهر التوحيد فيها خالصاً من

شوائب الوثنية ، ويقيم الله بها حجته على الناس كلهم ، فلا يكون هناك حاجة إلى رسالة بعد رسالتها ، بل يختم بها عهد الرسالة ، وتبقى شريعتها ما بقيت الدنيا .

وقد ظهرت هذه الصفات القوية فيمن تبع هذا الرسول الفاتح من العرب ، فلم يحجموا عن الجهاد معه كما أحجم بنو إسرائيل ، بل شاركوه فى الجهاد من أول يوم بعث فيه ، وتحملوا من الأذى فى سبيله ما تخر له الجبال ، فلم يؤثر ذلك فى نفوسهم ، ولم يصرفهم عن إيمانهم ، وقد كان أحدهم يؤتى به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء ـ وهى الرمل الشديدة الحرارة لو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت ـ ثم يؤتى بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقال له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد ، أى الله أحد . وكان خباب بن الأرت له مولاة تعذبه بالنار ، فتأتى بالحديد المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر ، فيتحمل هذا ولا يطاوعها إلى الكفر . وقد اشتد العذاب يوماً عليه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده فى ظل الكعبة ، فقال له : يارسول الله ، ألا تدعو الله لنا . فقعد عليه السلام محمراً وجهه ، ثم قال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

فرباهم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا وأمثاله على الصبر على المكاره ، وغرس فى نفوسهم الأمل فى حياة سعيدة جديدة ، يشمل الأمن فيها

بلاد العرب ، وتزول فيها الخصومات من بينهم ، ويقوم بينهم التناصر والتعاون على الخير ، فيظهر دينهم الجديد بظهورهم ، ويسطع نور التوحيد فى العالم بما لم يحصل مثله قبلهم .

فأظهر منهم أبطالا يحبون الموت على الحياة ، ولا يرهبون الحرب ولو اجتمع عليهم فيها شعوب الأرض كلهم ، وقد خرجت قريش إليهم فى غزوة بدر ، وهى فى جمع كثير يبلغ أضعافهم ، والعرب كلهم يد واحدة معها عليهم ، فجمعهم النبى صلى الله عليه وسلم يستشيرهم فى حربها ، فقام المقداد بن الأسود فقال له : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدونَ) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

أما أنه ليس بعد هذه القوة قوة ، وليس بعد هذه الشجاعة شجاعة ، وليس بعد هذا الإيمان إيمان ، وليس بعد هذا العزم عزم ، يطلب النبى صلى الله عليه وسلم أن يحاربوا جيش قريش وحده ، فيجيبونه إلى قتال العرب كلهم ، ويخبرونه بأنه لو طلب منهم أن يسيروا إلى برك الغماد لساروا إليها ، وحاربوا من دونها حتى يبلغوها ، وهى موضع على ثلاثين أو أربعين ميلا فى الجنوب الغربى من المدينة ، وقيل إنها أقصى معمور الأرض ، وبهذا تكون إجابتهم إلى قتال الناس كلهم ، لا إلى قتال العرب وحدهم ، فبارك الله فى تلك القلوب الفتية ، وتلك العزائم الصادقة ، وذلك الإيمان الذى يهدّ الجبال ، ولا يستطيع أحد أن يمنعه عن الوصول إلى غايته .

وقد توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفتح بعد أن ألجأه قومه من الخروج من مكة الى المدينة ، فقاتلهم كما قاتلوه وأخرجوه من بلده ، وقاتل العرب معهم حين انضموا اليهم ، وصار يقود أصحابه من نصر إلى نصر ، حتى تم له فتح مكة عاصمة العرب الدينية ، وتم له بعدها فتح جزيرة العرب كلها ، فاستقرت به دولة التوحيد فى بلاد العرب ، ودان له أهلها جميعا ، فنال بهذا من الفتح ما لم ينله رسول قبله ، وأنشأ للتوحيد دولة لم يسبق له دولة مثلها ، وبهذا كان هو الرسول الفاتح دون الرسل جميعاً ، لأنه تهيأ له من الفتح ما لم يتهيأ لهم ، وظهر له من الدولة ما لم يظهر لرسول قبله .

ثم أتى خلفاؤه من بعده فساروا فيما بدأ به من الفتح ، واشتبكوا فى حروب كثيرة مع دولتى الفرس والروم ، حتى تم لهم إسقاط دولة الفرس ، واستولوا على كثير من بلاد الروم ، ووصلت دولة التوحيد بهم إلى أعلى ذروة فى القوة ، حتى صارت أقوى دولة فى الأرض .

فوصلت الرسالة السماوية إلى غايتها ، وتم لها ما أرادت من إعلان دعوة التوحيد بهذه القوة ، فختمت بالرسالة المحمدية رسالتها ، ولم يبق بعدها إلا الجهاد المتواصل فى تأييد دعوة التوحيد ، والدفاع بالنفس والمال عن ذلك الدين الخالد .

وقد يظن بعض الناس أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء للفتح والحرب ، وأن شأنه فى هذا شأن الملوك الفاتحين ، وهو ظن خاطىء كل الخطأ ، لأن أولئك الفاتحين كانوا لا يعرفون الفتح إلا بطريق الحرب ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان لا يسمى هذا فتحاً ، وكان لا يقيم لمثله وزناً ، لأنه يقتصر على فتح البلاد ولا يصل إلى فتح القلوب ، وتكون غايته كسب المجد بالانتصار على الأعداء ، لا كسب محبتهم ومودتهم .

ولهذا عد الإسلام صلح الحديبية أعظم فتح ناله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نوّه القرآن به أعظم تنويه فى أول سورة الفتح ، فقال (إنا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدمَ من ذنبك وما تأخرَ ويتم نعمتهُ عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزا) فهذا الذى سمـــاه فتحا كان سلما لا حربا ، وصلحا لا قتالا ، وهدنة كان فيها بعض من الغُنْم للمشركين ، وبعض من الغرم على المسلمين ، ولكنها عدت مع هذا فتحا مبينا ، ونصرا عظيما ، وقد تضمنت هذه الشروط الأربعة :

١ — وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات .

٢ — من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده .

٣ — أن يرجع النبي صلى اللهُ عليه وسلم من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتى فى العام المقبل ، فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ، فيقيم بها ثلاثة أيام ، ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف فى القراب والقوس .

٤ — من أراد أن يدخل عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل عهد قريش دخل فيه .

فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط على ما فيها من الغرم عليه وعلى أصحابه ، ودخل أصحابه منها أمر عظيم ، حتى قالوا : سبحان الله ! كيف نرد إليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون من جاءهم مرتداً ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : إن من ذهب منا إليهم فلا رده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا . وكان الشرط الثالث أشد تأثيراً على قلوب أصحابه ، لأنه أخبرهم أنه رأى فى منامه أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبا بكر فى ذلك فقال له : وهل ذكر أنه فى هذا العام ؟

فكيف يسمى الاســـلام هذا الصلح فتحا ؟ والفتح إنما هو الاستيلاء على البلاد بالحرب أو نحوها ، وهذا الصلح لم تفتح به بلد من البلاد ، بل كان مشتملا على تلك الشروط القاسية . فلاشيء إلا أن الاسلام كان يهمه فتح القلوب أكثر من فتح البلاد ، وقد كان هذا الصلح سببا فى فتح قلوب كثير من المشركين ، لأن الحرب التى كانت قائمة بين المسلمين وقريش جعلت الأمر مغالبة بين الفريقين على النصر ، فغلب فيه التعصب على القلوب ، حتى أعماها عن أمر ذلك الدين ، وجعل أمر النصر هو الغاية العظمى من هذا القتال ، فصاروا لايفكرون إلا فيه ، ولاينظرون فى ذلك الدين الذى نشأ القتال من أجله ، لأن العرب أهل حرب وعناد، فإذا مضوا فى الحرب ركبوا رؤوسهم ، وصار النصر أهم غاية لديهم .

فلما قام هذا الصلح هدأت به النفوس . وأمكنها أن تعيد التفكير فى ذلك الدين الذى قام فى سبيله هذا القتال ، فاهتدى إلى الاسلام كثير من عظماء قريش ، ولانت قلوبهم إليه بعد تلك القسوة البالغة، فما هى إلا أن فتحت مكة عليهم حتى دانوا به فى يوم وليلة، وهذا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمكنه بهذا الصلح أن يقوم بدعوة سلمية عامة، فكاتب ملوك عصره ودعاهم إلى الاسلام ، وتمكن بهذا من نشر دعوته العامة بين غير العرب من الشعوب ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا، وتم هذا بفضل ذلك الصلح المبارك .

فلله ذلك الفتح الذى كانت غايته فتح القلوب ، ولم تكن غايته ملك البلاد ، ولا قهر العباد .

دراسة تحليلية

فى أطوار حياة النبى صلى الله عليه وسلم

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الدراسة التحليلية فى قوله تعالى فى الآيتين « ١٥ ، ١٦ » من سورة يونس (وإذا تُتلَى عليهمْ آياتُنا بينات قالَ الذينَ لا يرجونَ لقاءنا ائْتِ بقرآنٍ غير هذا أو بَدِّلهُ قل ما يكونُ لى أنْ أبدلهُ من تلقاء نفسى إنْ أتَّبعُ إلا ما يوحى إلىَّ إنى أخافُ إنْ عصيتُ ربى عذابَ يومٍ عظيمٍ ، قُلْ لو شاء اللهُ ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقدْ لبثت فيكم عمراً من قبله افلا تعقلونَ) .

وفى هذه الإشارة دليل من علم النفس وعلم التاريخ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى لم يقتصر على معجزة القرآن فى الدلالة على نبوته ، بل أضاف إليها أدلة كثيرة من المعجزات وغيرها ، وكان أحياناً يقيم عليها بعض الأدلة العقلية ، كالدليل الذى أقامه عليها فى هاتين الآيتين ، فهو دليل عقلى على تأتى دلالته من ناحية علم النفس وعلم التاريخ ، فقد أمرهم فيهما بدراسة تاريخه قبل نبوته وبعدها ، وبدراسة نفسه فى هذين الحالين ، ليستنتجوا منهما مايدلهم على نبوته ، والدراسة الأولى ترجع إلى علم التاريخ ، والدراسة الثانية ترجع إلى علم النفس ، وكلاهما يتعلق بدراسة أطوار حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

ولقد مرت حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى أربعة أطوار :

أولها من ميلاده إلى أن بلغ اثنتى عشرة سنة ، وقد بدأ فى هذا

الطور يتيما فقيراً ، مات أبوه عبد الله قبل جده عبد المطلب وهو شابٌ لايجاوز العشرين سنة ، فلم يرث من مال أبيه شيئاً ، ولم يتمكن من أن يجمع لابنه مالا ، وقد مات بعد شهرين من حمله ، ثم لم تلبث أمه أن ماتت أيضاً ، فكفله جده عبد المطلب ، ولم يلبث أن مات أيضاً ، فكفله عمه أبو طالب .

وكانت قريش تعيش فى مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل والكسب ، ولاتعتمد على مايعتمدعليه أهل البادية من الغزو والنهب ، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على عادة قومه محباً للعمل ، راغباً فى الكسب الحلال ، وهى عادة أخذ نفسه بها فى كل أطوار حياته ، حتى كان يقول بعد أن كرمه الله بالبعث : أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده ، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده .

وقد ابتدأ عمله فى هذا الطور من حياته برعى الغنم ، فكان يرعى الغنم لبعض قومه على قراريط يأخذها منهم ، كما رواه البخارى فى صحيحه ، وهى حرفة من أشرف الحرف لغلام نشأ فى مثل بلده ، وكان الله يريد له أن ينشأ أمياً لايجلس إلى معلم ، ولا يقرأ فى كتاب ، لتكون معجزته فى أميته ، ودلالة نبوته فى هذه النشأة التى ابتدأها برعى الغنم .

وكان فى هذا الطور يميل إلى شىء من اللهو البرىء ، فإذا أرادت نفسه أن تجاوز حد هذا اللهو أدركته عناية الله تعالى ، فحرسته من الوقوع فيما يشينه ، وقد ذكر أمره فى ذلك بعد أن كرمه الله بالبعث فقال : لمانشأتُ بغضت إلىّ الأوثان ، وبغض إلىّ الشعر ، ولم أهُمّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريدمن ذلك ، ثم ماهممت بسوء بعدهما ، حتى أكرمنى الله برسالته ،

قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك .

وثانيها يمتد من اثنتى عشرة سنة إلى أن بلغ خمساً وعشرين سنة ، وقد ترك فى هذا الطور رعى الغنم ، وأخذ يشتغل بعمل أكبر منه وهو التجارة ، فعمل فيها مع عمه أبى طالب ، وكان يسافر معه إلى الشام فى تجارته ، حتى حذق التجارة واشتهر بالصدق فيها ، فانفرد عن عمه بتجارة خاصة به ، وأخذ يعمل فيها وحده ، وقد وصلت شهرته فيها إلى خديجة بنت خُويلد ، وكانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال للتجارة فى مالها ، وتضاربهم إياه ، فلما بلغتها شهرته رغبت فى أن تستأجره كما تستأجر غيره من الرجال ، فكلمته فى أن يخرج فى تجارة لها إلى الشام ، على أن تعطيه أفضل مما كانت تعطى غيره ، فسافر إلى الشام مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيما ، فلما رجع سرت بما كان منه ، وكان زوجها قد توفى ولم تتزوج بعده ، فأرسلت إليه تخطبه لنفسها ، وهى تبلغ فى ذلك الوقت أربعين سنة ، وكان سنُّهُ لا يتجاوز خمسا وعشرين سنة ، فأجابها إلى ما طلبت ، وأخذ أعمامه إلى عمها عمرو بن أسد ، فخطبها له منه عمه أبو طالب ، فزوجها عمها له ، وانتقلت حياته بهذا إلى طور آخر غير هذين الطورين السابقين .

وثالثها يمتد من خمس وعشرين سنة إلى أربعين سنة ، وقد صار له فى هذا الطور زوج غنية كريمة ، سلمت له فى مالها ، فكان يعمل فيه

لها ، ويأكل من نتيجة عمله فيه ، وقد كان فى نفسه ميل إلى عبادة ربه ، وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية ، فلما رزق بهذه الزوج الكريمة وجد من وقته ما يساعده على إجابة رغبته فى تلك العبادة ، فكان يقصد كل سنة فى شهر رمضان إلى غار حراء ، فينقطع فيه للعبادة . وكانت قريش تفعل ذلك فى جاهليتها ، ففعل النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك ما كان يفعله بعض قومه ، ولم يبتدع به شيئا لم يفعله غيره .

وهذا الطور كان آخر أطواره قبل النبوة ، فإذا أردنا أن نستخلص منها شيئا من أحواله وخصائصه فيها ، وجدناه رجل عمل يعتمد فى حياته على نفسه ، ويأخذ فيها بما عرف به قومه من الحذق فى التجارة ، والرحلة فيها إلى الأقطار المجاورة لهم ، وكانت هذه التجارة شغلهم الشاغل ، وعملهم الذى لا يهتمون بغيره مما يهتم به العرب ، من الحرب والغزو والنهب ، حتى عيرهم به بعض شعرائهم فقال :

ألهى قصياً عن المجد الأساطير ورشوةٌ مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحتاً لاخليط له وقولها رحلت عيرٌ أتت عيرٌ

وما كان عليها من عار فى هذا العمل الشريف ، وإنما هو عنجهية الشعر والشعراء فى ذلك الزمن الجاهلى .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحياة التجارية من أحسن قومه خلقا ، وأعظمهم أمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، حتى كان من أفضلهم مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جوارا ، وأعظمهم حلما .

فأحبه قومه لهذه الأخلاق الكريمة ، وركنوا إليه فى كثير من أمورهم ، حتى كانوا يلقبونه بالأمين ، واشتهر بهذا اللقب بينهم ، وقد

اختلفوا عند بناء الكعبة فى الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه منها ، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم ، فكان صلى الله عليه وسلم أول من دخـــل إليهم فيها ، وكان سنه فى ذلك الوقت خمسا وثلاثين سنة ، فاتفقوا كلهم على تحكيمه فى أمرهم . وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد . فبسط رداءه ووضع الحجر عليه، وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه منهم ووضعه فيه .

ولقد أمكنه بهذه الأخلاق الراضية أن يكسب حب قومه فى هذه الأطوار الثلاثة ، مع أنه كان يعلم فساد ما كانوا عليه من عبادة الأصنام، وكان هذا مما يدعو إلى نفرته منهم ونفرتهم منه ، ولكنه لم يشأ أن يفسد بهذا ما بينه وبينهم ، وذهب مذهب من يهتم بإصلاح نفسه ولا يهمه إصلاح غيره ، ومن الناس من يذهب هذا المذهب إذا يئس من إصلاح الناس ، وانقطع أمله فى خيرهم ، وكأنى به صلى الله عليه وسلم قد ضنّ بذلك الحب الذى كان يجده من قومه أن يفسده بتخطئتهم فى عبادة الأصنام ، وفيما كانوا يأتونه من رذائل الجاهلية ، فعاش بينهم لا يهمه إلا أن يحفظ نفسه مما وقعوا فيه ، ثم يتركهم بعد هذا وشأنهم ، لأنه لاشىء عليه من أعمالهم .

وإذا كان قد اعتزل ما كان من شرهم فى الجاهلية، فإنه كان يشاركهم فى بعض أعمالهم الصالحة ، ومن ذلك مشاركته لهم فى حلف الفضول، وقد عقد هذا الحلف فى دار عبد الله بن جُدْعانَ التَّيْـمى ، وكان المتحالفون فيه من بنى هاشم وبنى المُطَّلب ابنى عبد مَنَاف ، ومن بنى أسد بن عبد العزى ، ومن بنى زُهرة بن كلاب ، ومن بنى تَيْـم ابن مُـرَّة ، تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو

غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، حتى ترد إليه مظلمته . فحضر النبي صلى الله عليه هذا الحلف مع أعمامه بدار عبد الله بن جدعان ، وكان يفتخر به بعد أن كرمه الله بالبعث ، ويقول . لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ، ما أحب أنّ لى به حُمُرَ النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يعنى فى هذه الأطوار قبل النبوة بشيء من الفصاحة والبلاغة ، فلم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً ، بل كان يكره الشعر والشعراء ، مع أن جزيرة العرب كانت تعج فى ذلك الوقت بالشعراء والخطباء ، وكانت كل قبيلة تعتز بشعرائها وخطبائها ، ولكن قريشاً كانت لاتعنى بشيء من ذلك ، وإنما كانت تعنى بالعمل والتجارة ، حتى كان حظها من الشعر فى الجاهلية أقل من حظ غيرها من القبائل ، مع أن لغتها كانت أفصح اللغات العربية ، ومع أنها كانت أوفر علما ، وأدق ذوقا ، ومع أن مواسم الأدب وأسواقها كانت لاتقوم إلا بينها ، ولا تظهر إلا فى ربوعها .

وهكذا قضى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار أربعين سنة ، قضاها فى حياة هادئة ، وعيشة راضية ، لاتحدثه نفسه بشيء مما حصل منه بعدها ، ولاتدل حياته فيها على شيء مما سيحصل له .

ورابعها يمتد من أربعين سنة إلى وفاته فى سنّ ثلاث وستين سنة ، وفيه تتغير حياته فجأة تغيراً كبيراً ، ويصير إلى حالة لم تكن حاله الأولى بحيث تؤدى إليها ، فقد كان فى حاله الأولى لا يعنيه حال قومه فى عبادة الأصنام ومالإليها ، ولايتعرض لتخطئتهم فى عبادتها حرصا على مودتهم ومنزلته بينهم ، فصار فى الحالة الثانية لايهمه فى حياته إلا أن يقضى على عبادة الأصنام بين قومه ، ولو أدى هذا إلى أن

تنقلب مودتهم له إلى بغض ، وتعظيمهم له إلى تحقير واستهزاء ، وقد حصل هذا فعلا ، فبعد أن كانوا يلقبونه الأمين صاروا يرمونه بأنه ساحر أو كاهن أو مجنون ، وبعد أن كان يعيش بينهم أهدأ عيشة صارت عيشته إلى أشد كفاح بينه وبينهم .

وقد عاش فى حاله الأولى أمّيّا لايقرأ ولايكتب ، ولم يعرف إلا التجارة ورعى الغنم ، ولم يحاول أن يكون خطيبا أو واعظا ، فصار فى الحالة الثانية وبيده كتاب يتحدى به العرب كلهم ، وقد انقلب إلى خطيب يبهر قومه بفصاحته وبلاغته ، وإلى معلم لايدانيه عالم فى علمه ، والى مشرّع يشرع من العقـــائد والأحكام مالم يأت به مشرع قبله .

وكل شيء الا هذا الكتاب الذى يتحدى به العرب جميعا ، فهو كتاب لم يقدر العرب أن يأتوا بمثله فى فصاحته وبلاغته وغيرهما مما امتاز به ، وقد سلم من العيوب التى لاتسلم منها كتب البشر ، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فما هذا الانقلاب الفجائى الذى لايعرف مثله علم التاريخ؟ولا يعهد مثله فى علم النفس ، لأن العلم لايعرف الا سُنَّة النشوء والارتقاء، والتدرج من حالة الى حالة ، ولا يعرف مثل هذا الانقلاب الفجائى ، ولا مثل هذه الطفرة .

فلابدأن يكون هذا الانقلاب راجعا الى أمر خارج عن نفسه ، ناشئا عن شيء لاشأن له فيه ، لأنه لو خُلى ونفسه لمضى فى حياته الأولى ، لأنه كان راضيا بها كل الرضا ، ولم يَبْدُ منه مايشعر بسخط عليها .

فإذا ادّعى أن ذلك الانقلاب لاشأن له فيه ، وانما هو من الله تعالى ، لم يقف دون دعواه أى عائق من العلم ، بل كان العلم مؤيدا

لدعواه ، حاكما بأن مثل ذلك الانقلاب لا يمكن فى سنته أن يرجع الى ذات نفسه ، وانما هو راجع الى أمر خارج عنها .

وقد وقع هذا الحكم من العلم فى ذلك الانقلاب على يد عالم كان معاصراً له ، وهو ورقة بن نوفل ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وعرف اللغة العبرية قراءة وكتابة ، فكان يكتب من الإنجيل بها ماشاء الله أن يكتب ، فلما ظهر جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم بأول وحى أدركه روع شديد ، وخاف أن يكون مارآه من الشياطين، وكان قد ظهر له وهو يتعبد بغار حراء ، فرجع إلى زوجه خديجة وقص عليها مارأى ، فطمأنته وخففت من روعه .

ولكنها أرادت أن تستفتى ورقة بن نوفل فى ذلك الانقلاب الفجائى الذى طرأ على زوجها ، وكان ورقة ابن عمها ، فذهبا إليه يستفتيان علمه ، لأن حكم العلم هو الذى يرتاح إليه القلب ، ويبعث الطمأنينة فى النفس ، فلما قصا عليه ذلك الأمر ، قال : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى .

ولاشك أنه رجع فى هذا إلى ما كان يعرفه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، لأنه كان معروفاً بالصدق والأمانة ، فلا يمكن أن يكون فى أمره شيء من الحيلة والتصنع ، كما رجع إلى مانزل عليه من ذلك الوحى ، لأن مثله لا يكون من الشياطين ، وإنما يكون من ذلك الملك الذى كان ينزل على الأنبياء ، وهو فى هذا الحكم يعتمد على العلم ، ويتخذ منه دليلا على صدق النبي صلى الله عليه وسلم .

الحرب الخاطفة فى الحروب النبوية

يتردد فى الحروب الحديثة اسم الحرب الخاطفة على أنهاما ابتكره قواد عصرنا فى أساليب الحرب ، واخترعوه فى نظام القتال، فتكون منقبة من مناقبهم ، ومفخرة لهم لم يسبقهم إليها أحد ، وليس هذا من الحق فى شىء ، لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى ابتكر هذا النظام فى الحرب ، وابتدعه فى قتاله لأعدائه ، فكان عنده سُنة متبعة فى القتال ، وتقليدا يأخذ به فى الهجوم على الأعداء ، لأن هذا النوع من الحرب لايكون إلا فى حالة الهجوم ، وهذا لأن أسلوبه يعتمد على المفاجأة ، ومداهمة بلاد العدو فى غفلة ، وإخفاء مقصد الجيش المهاجم حتى يصل إليه قبل أن يعلمه العدو ، والتهويل فى قوته حتى يملأ الرعب منه كل نفس ، ويأخذ الخوف منه قلوب الأعداء .

وللحرب الخاطفة فائدتها فى أن النصر يؤخذ فيها بأقل ثمن ، لأن العدو يؤخذ فيها قبل أن يستعد للقتال، فيستولى عليه الدهش، ويأخذه الرعب والخوف ، ويبادر إلى التسليم للجيش المهاجم ، فلايكلفه عناء فى القتال ، ولا تضحية فى الجنود ، ولا يجعله يكسب النصر بالثمن الفادح، من الدماء الغزيرة ، والأموال الكثيرة ، فلايكون الفرح به خالصاً ، بل يكون مشوباً بالحزن على ماسال فيه من الدماء ، وماضاع فيه من الأموال ، ومن فقد فيه من الأبطال .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر هذا النوع من الحرب فى حروبه ، لأن أصحابه كانوا فى قلة ، ولم يكونوا بين أعدائهم إلا قطرة فى بحر ، وقد اضطرهم أولئك الأعداء إلى حروب متواصلة ، فكان

النبى صلى الله عليه وسلم فى حاجة إلى الاقتصاد فى هذه الحروب ، لتقل فيها ضحايا المسلمين ، ولا يضعف أمرهم بكثرة من يقتل منهم .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، فيقول مثلا إذا أراد غزوة حُنين : كيف طريق نجد ومياهها ؟ ومن بها من العدو ؟ لأن طريق نجد غير طريق حنين ، فيضلل بهذا من يقصده بتلك الغزوة ، ليأخذه بها على غفلة ، وكان يقول «الحرب خدعة» .

وكان له عيون وأرصاد بين أعدائه ، وكانوا يأتونه بأخبارهم أولا بأول ، فإذا بدرت منهم بادرة حرب كان خبرها عنده قبل أن يستعدوا لها ، فيفاجئهم بحربه قبل أن يستعدوا له ، ويضربهم ضربة سريعة قاتلة ، وكان يستحب القتال أول النهار ، فيأخذ أعداءه وهم لا يزالون فى غفلتهم ، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، وتهب الرياح ، فيأوى السكان إلى منازلهم ، ويأخذهم أيضاً فى غفلتهم وسكونهم ، وتلك هى الحرب الخاطفة بعينها ، وتلك هى طرقها وأساليبها ، ولا غرو فى أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم مبتدع هذا النوع من الحرب ، لأنه كان يجمع أنواع العظمة كلها فى شخصه الكريم ، فكان الرسول الأعظم بين الرسل ، وكان القائد الأعظم بين القواد ، وكان البطل الأعظم بين الأبطال ، وكان المصلح الأعظم بين المصلحين ، وكان المشرع الأعظم بين المشرعين ، إلى غير هذا من نواحى العظمة التى بلغ فيها ذروتها ، ووصل فيها إلى مالم يصل إليه عظيم قبله ولا بعده .

ومن أظهر الحرب الخاطفة فى الحروب النبوية حرب الفتح الأعظم — فتح مكة — وقد كانت مكة موطن الكعبة ، وهى قبلة المسلمين ، وموضع تقديس العرب أجمعين ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يستولى عليها بحرب خاطفة ، يباغت بها أهلها مباغتة ،

ويأخذهم بها قبل أن يستعدوا له ، فيضطرهم إلى التسليم من غير حرب، ويحفظ بهذا دماء المسلمين الفاتحين ، كما يحفظ دماء قومه من أهل مكة ، ليدخلوا بعد الفتح فى الإسلام ، ويكونوا أكبر عون للمسلمين، وهذا إلى أنها بلد مقدس لا يحل سفك الدم فيها إلى بقدر الضرورة ، ولا يصح أن تعرض أماكنها المقدسة إلى تخريب ونحوه .

فتجهز النبى صلى الله عليه وسلم للسفر إلى هذا الفتح ، ولم يخبر أحدا بقصده إلا أبا بكر الصديق ، لأنه كان أمينه ومحل سره ، ثم وضع حراسا على رؤوس الطرق الموصلة إلى مكة ، ليسألوا من يسافر فيها عن مقصده وغايته، وكان لأهل مكة جواسيس وأنصار فى المدينة من المنافقين ، فوضع الحراس على تلك الطرق حتى لا يمكن أحداً من المنافقين أن ينقل خبر ذلك الاستعداد إلى أهل مكة ، فكانوا لا يأذنون بالسفر فى تلك الطرق إلا لمن يوثق فيه من المسلمين ، ويردون عنها كل من يظن فيه أنه جاسوس ، وكان على رأس أولئك الحراس عمر ابن الخطاب ، وهو معروف بشدته ويقظته ، فكان يتعهدهم وقتا بعد وقت ، ليقوموا بحراستهم على أكمل وجه .

ومع هذا أمكن جاسوسة أن تفلت من أولئك الحراس ، وهى جارية لحاطب بن أبى بلتعة ، وكان مؤمنا مخلصا فى إيمانه ، ولكنه كان له أهل ومال بمكة ، ولم يكن من صميم أهلها ، فأراد أن يتقرب بهذا إليهم ليحافظوا على أهله وماله ، وكان قد كتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه باستعداد النبى صلى الله عليه وسلم للغزو ، وأنه ربما يقصدهم به ، ثم أرسل جاريته بهذا الكتاب إليهم ، فعلم النبى صلى الله عليه وسلم بأمرها ، وانتدب لها ثلاثة من كبار أصحابه ليلحقوها قبل أن تصل إلى أهل مكة، وهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ،

فانطلقوا مسرعين حتى أدركوها بروضة خاخ ، وقاموا بتفتيشها حتى عثروا على ذلك الكتاب فى عقاصها ، فأخذوه منها ، ورجعوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وبهذا تم تجهيز ذلك الجيش من غير أن يعلم مقصده ، وكان عدده عشرة آلاف ،وهو أعظم جيش سار النبي صلى الله عليه وسلم به للغزو ، وكان ذلك العدد العظيم من ضمن الوسائل التى أراد أن يستولى بها على مكة فى حرب خاطفة .

فسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى مَرّ الظَّهْران ، وصار قريبا من مكة ، فأراد أن يهول فى أمر جيشه على أهلها ، ليلقى الرعب فى قلوبهم ، ويضيف وسيلة جديدة إلى الوسائل التى أراد بها تحقيق تلك الحرب الخاطفة ، فأمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، ليراها أهل مكة ، فتلقى الرعب فى قلوبهم ، وكانوا قد بلغهم أمر ذلك الجيش العظيم ، ولكنهم لم يدروا الوجهة التى يريدها ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يلتمسون خبر ذلك الجيش ، فلما وصلوا إلى مر الظهران رأوا تلك النيران تسطع فى الليل ، فهالهم أمرها ، حتى قال أبو سفيان : ما هذا ؟ لكأنها نيران عرفة ! فقال بديل بن ورقاء : هى نيران بنى عمرو . فقال أبو سفيان : بنو عمرو أقل من ذلك .

وكان هناك حرس من المسلمين يطوفون حول الجيش ، حتى لا يقصده أحد بسوء ، فعثروا فى طوافهم بأبى سفيان وحكيم وبديل ، فأخذوهم أسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو سفيان زعيم أهل مكة فى حروبها مع المسلمين ، وكان أشد المشركين عداوة للإسلام ، فلما رأى ذلك الجيش رأى أن أمرهم إلى انهزام ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى كل هذا إلا بتأييد إلهى ، فآمن به وصدقه ، وترك ما كان عليه من الشرك الذى أصر عليه كل تلك المدة ،

ولا شك أن إسلامه فيه أكبر صدمة لقريش ، لأنه كان رئيسهم فى السلم ، وقائدهم في الحرب ، فإسلامه فى ذلك الوقت كان خسارة كبيرة عليهم ؛ وهذه كانت أولى ثمرات تلك الحرب الخاطفة .

وقد أوقف النبي صلى الله عليه وسلم أباسفيان عند خطم الجبل وجعل الجيش يمر عليه كتيبة كتيبة ، ليرى عظمته وقوته وحسن نظامه ، وينظر من اجتمع فيه من القبائل الكثيرة ، فإذا عاد إلى أهل مكة أخبرهم بما رأى من ذلك ، فيملأ الرعب قلوبهم ، ويرون أنه لافائدة من الحرب ، فيبادرون إلى التسليم ، ولا يعمدون إلى المقاومة .

وكانت نتيجة ذلك كله موافقة لما قدره النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قسم جيشه إلى قسمين : قسم بقي معه ليدخل مكة من أعلاها من كداء ، وقسم جعله مع خالد بن الوليد ليدخل مكة من أسفلها من كُدَى ، فلم يشعر أهل مكة إلا وذلك الجيش يحيط بهم من كل جانب ، وأصوات الأمان تتجاوب من هنا ومن هناك : من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ولم يمكن أهل مكة إلا أن يجيبوا داعي الأمان ، فيدخلوا دورهم ويغلقوها عليهم ، ويدخل بعضهم المسجد الحرام ، ويدخل بعضهم دار أبي سفيان ، ويتم بهذا فتح أكبر بلد فى جزيرة العرب من غير أن يذهب فيه دم يذكر ، وما كان أحد يظن أن يتم فتحها بهذه السهولة ، بعد الحروب الطويلة التى وقعت بين المسلمين وقريش ، ولكنها الحرب الخاطفة التى تكسب النصر بأقل ثمن . وفى أقل مايمكن من الزمن.

تمت هذه الدراسات ، وستتبعها دراسات أخرى إن شاء الله تعالى ؟

فهرس

تصحيحات

ص	س	صواب	ص	س	صواب
٦	٢	الحضارة والبداوة	٩٩	١٤	لأنهم
٥٠	١	الفنون	١٠٥	٧	خلقنا كم من تراب
٦٧	١١	« ٢٧ »			ثم من نطفة
٧١	١٦	فاهبط منها	١١٤	١٩	صريحتان فى أن
٨٧	١١	ليست	١١٨	١٩	السنة والشيعة
٩٥	١٧	نبأ	١٣٢	٢٠	أمكنهم منهم

مطبعة الاعتماد بمصر

الثمن ١٠ ص